محمد قطب

الخروج إلى النبع

رواية

الكتاب: الخروج إلى النبع (رواية)

الكاتب: محمد قطب

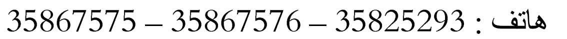
الطبعة: **2018**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

قطب، محمد

الخروج إلى النبع / محمد قطب

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

175 ص، **18** سم.

الترقيم الدولى: **5 – 626 – 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **25720 / 2018**

الخروج إلى النبع





- 1 -

ألقت شجرة النبق ظلالها على الأرض، وكانت هي تتملى حبات الثمر. غافلها القمر فتسلل جسوراً إلى وجهها فضحكت. حضنت في لهفة العاشق مزهرها، وجرت أصابعها على الوتر فذاب الجمود. ورقص الموج، وتمايلت الغصون، ولامست حوافها النهر. سقطت حبة نبق، مدت يدها والتقمتها. فردت شعرها ومشطته. كان الشعر جدائل موج داكن، وكان القمر لا يزال يداعبها، ويسكب ضوءه الباهر فيمتزج بألق الجبهة، وبهاء الثغر. ثم يمرح بالنهر فيفور الموج ويتلاطم.

فاح عطرها ومشى في المكان، وكانت الرائحة نافذة. كانت رائحتها المفضلة، تعصرها لها الجواري من زهر الياسمين. تخدر المكان بالأريج. فمدت ذراعيها، واستلقت، فردت ساقيها، مرت بكفها على جسدها.. لامست جسدها جزءًا جزءًا، وبدا الجسد مبهرًا ، وكان الفحيح شديدًا. والانبهار طاغيًا. فاتها في لحظة التلذذ أن تدرك التسلل..

هذا التسلل الرافض لحركة العطر وطراوة الأنفاس ودفء الجسد. لم تشعر بالتلوي. رغم أن ضوء القمر في ذات اللحظة انعكس على حدقتي عينين ضيقتين، استكان فيهما الانتظار حتى تحين لحظة الانقضاض..

- 2 -

وقف رجل في براح السوق وحكى:

حين رآها، كان على الشاطئ الآخر يتملى جمالها مبهوتاً ومأخوذاً، رصده. يتسلل إليها، يسعى إلى الدفء، ناعم التلوي، خفيف الوطء.. حرك يده وخرجت من الحركة القطة السوداء الشرسة.. أدركته ولما يلتصق بالجارية، كاد يلاصقها، كاد يصل إلى مكمن النبض ويلدغ.. وكان نغم المزهر حاديه، وزخم العطر هاديه. غرس صبي في يده في الفراغ محتجاً.

- كيف تخرج القطة من الحركة؟

رد عليه رجل من الجمع المصفى بانفعال.

- مثلما ركب ظهر الضفدع وعبر النهر.

نهض آخر.. ثم قال.

- ولم لا تكون القطة موجودة بالصدفة.

احتد الراوي وغضب.

- لن أكمل الحكاية.

وهاج الجمع. سدت العيون الغضبى الأفواه. فانسحب المعترضون. اعتلى الراوي جذع نخلة قديم، وبسمة انتصار فرشت وجهه كله.

– تقوَّست القطة وزمجرت، وخمشه الثعبان. استدار لها فلطمته بقوة، تلوى بعنف وأحاط بها... وكان أيها القوم قد تمكن منها.

فلتت صيحة من الجمع، وفلتت شهقة من الصبي، فزت امرأة من مكانها وصرخت.

– الجارية.

رفع الراوي يده، وبسط كفه.

– اهدءوا... سأكمل الحكاية..

– حين رآه من بعيد، من الشاطئ الآخر، وقد تمكن من القطة، هاج، واحتد، وانفعل، سلَّط عينه، وسدد بصره على القطة. ثم حرك أيها القوم يده ثانية ..

صمت الراوي، فتعلقت به الأبصار وخفتت الأنفاس.

– اندفعت القطة تهدر، خمشته ولطمته، ظلت تخمشه وتلطمه، حتى استطاعت أن تضغط بكلتا يديها على رقبة الثعبان.. ثم تمكنت منه، وتدلى بلسانه ممطوطاً مدبباً، ولكن...

وعاود الراوي الصمت ثانية، وعاود الجمع التعلق به، وران الصمت والقلق..

– ولكن.. أيها القوم، ككل بطل يموت في ساحة الموت، ماتت شهيدة، لفظت القطة أنفاسها، واستشهدت ونجت الجارية ثم قفز النهر ومضى إليها..

هلل الجمع وصاحوا.

– من غيره ينقذها؟!

– ومن يقفز النهر سواه؟!

انتحى رجل من الجمع بشيخ وقور وهمس في أذنه.

– كيف يطالبنا الراوي أن نلغي عقولنا؟

– 3 –

وصل إليها، والقطة ترتعش رعشة النهاية. مدت يديها واستسلمت نظرتها كابية، الجفنان ينطبقان في ثقل بطيء، وانحط الرأس في همود ثم اختلج بعنف، وضاع من العين البريق. أدار بصره في المكان، كانت الجارية لا تزال في خدر الغفوة، ربت على كتفها فهبت فزعة .. رأته فارعاً، عريضاً، ملتحياً ومبتسماً، نهضت وأحكمت رداءها. طغى

عليها الهول حين لمحت الثعبان .. والقطة، ظلت تنقل البصر بينهما، وتملكها لهاث عنيف ومتواصل، طمأنها فأطرقت برأسها، وحدقت في النهر، كان الموج رخياً وهادئاً، والقمر يطلق ضحكته عبر الموج والتكسر.

نظرت إلى الثعبان، ثم رمقته وقالت.

– أكان يقصدني؟

هز رأسه موافقاً.

– وقتلته القطة!

– نعم.

تناولت مزهرها بيد ترتجف وقالت.

– مصادفة غريبة.

ثبت عينيه على وجهها وقال:

– إنه الرضى.

– الرضى!

ضحكت ومرت بأصابعها على الوتر فرنَّ، وكان الرنين مقطوعاً ومرعوشاً، تهدج صوتها واخترقه الحزن.

– أترى أن الله راضٍ عنا؟

– بم تفسرين ما حدث؟

– أكان يمكن أن أموت..؟

– كلنا نموت.

– لكنه الموت بلدغة الثعبان.

اقترب واخذ منها المزهر. احتضنه فتماست الأوتار واهتزت. وانثال من الوتر فرح النغم، يهوم ويلف المكان. نفذ الفرح إلى القلب، وأعداها النغم فتمتمت في صوت موقع وكأنها تهمس لنفسها.

– فعل الله بالعاصي ما فعل.. فكيف بالمطيع؟

ودارت في المكان دورتين، أحاطت جذع شجرة النبق، قبلت فرعاً تدلت أوراقه، لامست بالقدم حافة النهر، رن الخلخال وابتل الساق. غرفت غرفة بكفيها، وشربت، ومسحت وجهها، ثم علاها ذهول مفاجئ فاهتز جسمها وما هدأ .. وأتاها البكاء، وما استعصى، وكان عصبياً .. كان ساخناً، وصاهداً، وكان مريحاً. تفتح الجسم، أحست أن جلدها يتمزق، وأعضاءها تتفرج، وشيئاً ثقيلاً يتسرب منها، ودغدغة تتحرك فوق الجلد، وتنميلاً راعشاً يسري مع الدم.

واجهته بانكسار وقالت:

- أهو يدعوني؟

- جاء الوقت.

- أطالت غيبتي؟

- لكل شيء أوانه.

- أكنت تعرفه؟

تبسم وقال:

رفعت رأسها فمسكها خيط النجم، وتعلقت أنظارها بالسماء مبهورة، ومذهولة، والقمر يضحك لها، وحبات النبق تتساقط حولها، وموج ليل يهدر لها، والنجوم تتزاحم في عينيها، نطقت مشرئبة العنق.

- وجلالك ما عصيتك بعد اليوم.

قالت في لطف.

- يا جارية.. أهل الطريق يعرف بعضهم بعضاً.

نطقت مأخوذة، وعينها تتوسل الرحمة.

- أأنت هو؟

تمهل ثم ألقى كلامه هينا.

- ما أنا إلا واحد يبحث عن الخلاص.

– أجئت تخلصني؟

قال في أناة:

– إنما جئت لتساعديني.

– أنا!

– نعم.. أنت.

ونبض القلب بمحبة طاغية، فتحرك داخلها خوف من الأيام.

– 4 –

والسوق وإن زاحمته الأشياء وعلاه الضجيج، لم يخل من لمسة متعة ومسحة جمال. طرحت الأشياء أمام الدكاكين، فخلبت العين وأدارت الرءوس. هبت نسمة رخية فأزاحت هموداً كان قد استولى على المكان. أصابت البلادة البائعين فاسترخوا، واستبطئوا عرض الأشياء. والسوق كانت مترعة حتى الحافة، في الزوايا والأركان والأزقة بغلالة من بخور لم يتلاشى بعد .. فالبخور أضحى من طبيعة المكان، بعد أن جاءه لابس الخرقة وصاحب الحال، ورمى بمبخرته في وجود التجار ... وسرعان ما انتفضت البلادة مولية، وتكالبت الأيدي والأذرع والسيقان .. وتطايرت الأثواب .. والأقمشة .. وفتحت الأجولة، ودفت الصنج .. وارتفعت الأصوات تنادي، ونضحت العين بالمشاعر، فسالت الرغبة

على الخدود والأشداق .. فالقادمة ليست امرأة عادية .. والقادمة التي تتثنى في مشيتها تيها وعجباً، تعرف طريقها إلى القلب.

لمحها رجل يعرض بضاعته في عرض الطريق الرئيسي للسوق، وهي تمرق إلى الداخل فارتجف وسقط من طوله، همهم تاجر يقف أمام أجولة الحبهان والصندل والعود ..

– ما رأيت حسناً كهذا من قبل!

هزه رجل بشدة.

– أرأيت كيف تكون الخطوة؟

تابع الأول همهمته لا مبالياً ..

– ما أروع أن يتجسد الحسن في هيئة امرأة.

قاطعة الآخر محتداً.

– أصبحت البلاد ملكاً لها.

واقترب من الرجل الموله بالحسن وكز على أسنانه.

– هي الآن كالملكة ..

استدرك وأسرع قائلاً.

– بل هي الملكة.

داوم الأول على همهمته، قبض بيده على الجبهان وقال:

– معذور من يقع في هواها.

وتهادت حين خطت، وكانت الخطوة تبدو في عيون الناس، تتابع في مشي رقيق لا يدرك، شدت قامتها، فبان صدرها جميل التكوين، أزاحت خمارها فبدا وجهها كفلقة البدر، خُيِّل إليهم حين رأوها أن القمر يضحك على جبينها، اهتز الرجل وبعثر الجبهان على رءوس الجمع، اجتاحته النشوة فزام ودمدم.

– إن لها صدراً ما رأيت مثله من قبل..

أشاح صاحبه بوجهه وتابعها على حين لهث الأول وقال:

– إنه يغريني بالتسلل، والاقتحام.

جذبه بشدة، وقطع متابعته وقال:

– لا تجرفك العاطفة فتضيع.

أحاط صاحبه بوله:

– إنك حين تراها.. لا تقوى على سحب ناظريك من عليها..

– وماذا بعد؟

– وماذا بعد؟ سيأخذك الشعور، ويحتويك، وسيفور داخلك بإحساس لم يخامرك من قبل

وفي النهاية طوَّح بيده في ملل..

– ليس في مثل هذا الحسن نهاية.

– لكن الأمر بعيد.

توهجت عيناه، وارتعشت شفتاه، خفق بذراعيه كعصفور بلله المطر.

– يكفيك الفوران الجياش ما دمت لا تستطيع أن تمتلك.

لاح له وجهها مبتسماً، وصلها الإطراء، فاحمر الوجه وأرخت الجفن.

– آه كم أشتهيك..

ضحك الآخر ساخراً وقال:

– لا تجعل عواطفك ترتفع إلى مقعد السلطنة.

أرخى على جسده الجلباب.. وأرسل عينه وراءها.. وتمتم..

– هي على الأقل لن تحرص على إبعاد نظرتي عنها كلما شرفت المكان.

- 5 -

خلعت مركوبها ونزلت إلى شاطئ النهر، شالت رداءها؛ فلاح ساقها قطعة من النور، تقاطر حولها الموج واصطفق، واجهها فجاست بعينها عبر الأمواج، قالت وضحكاتها ترن:

– لا يطفئ الظمأ غير النهر.

مسكت يدها وهزتها.

– انظر، ألا يضحك لي ويدعوني..

علتها مسحة من حياء.

– ماذا لو خلعت ملابسي وأتيته؟

حدَّق فيها وصمت.

– إن في القاع – لو نزلت – عالماً سحرياً.

"كان يأخذني من يدي كل صباح لنعوم في النهر.. شهد النهر مولدي وصباي.. كنا نغوص حتى القاع.. وكنا نتعرى وتسترنا البراءة.. حدثني أن خيطاً من النور ينبعث مني وأنه شاهد الإمساك تحوم حولنا من بعيد.. قيَّدها النور.. أحبني وافترقنا على حب.. وحين شاهدني بين الغلمان والجواري أصابه الكمد، وولى ولم يخلف أثرا!".

– قل لي ما بال الدنيا لا تعدل.

ظل صامتاً يرقبها.

– أحببنا فافتقرنا، وكرهنا فاغتنينا.

دارت حبات السبحة بين يديه وصمت.

– ألا تتكلم!

– لا يجرفك هوى النفس.

– حين نظر إلى القصر أحسست كرباجاً يلسعني، وتأكدت أنه يتهمني في كل خبطة عين..

دارت حول نفسها، ثم جمدت.

– كان في الحب غنى، فأضحى الغنى في الكراهية..

توقع منها البوح، شعر بداخلها يمور، وبنبتة الصبا الطرية تئن تحت وطأة الكره. جرفه شعور صادق بالخلاص.. أيقن أن النبتة في الداخل في حاجة إلى ري بعد ظمأ، وتفتح بعد يباس، تمنى أن تضحى عريشة وخميلة تلقي الظلال على الكل، ولا يستأثر بها واحد بعينه، فلا يستحق فناء الذات سواه. تحسس لسانه بالتجويف، انفرجت شفتاه وانطبقت، ثم انفرجت وقال بتهمل.

– تتزايد الكراهية حين تكون متبادلة.

شردت بعيداً ونفثت من الصدر آهة حزينة وقالت:

– ويموت الحب في النهاية.

مد يده، ومسح شعرها، بدأ الشعر في عينه خميلة، والعينان جدولين رقراقين.

– حتى الكراهية..

– الحب يقضي على كل شيء ويعلو عليه..

بدت مغتمة ومهمومة.

– حامت عيناه حولي وما حدثني.. أحس أنه كرهني..

تعلقت عيناها به.

– نشأنا كنبتين يعافران، لكنني حين جئت القصر هرب مني قلبه.

مست صدره، ولامست حبات المسبحة، وسقطت من عينيها دمعة، أحس صهدها، دفئها.

– اعتبرني سقطت، وتخلى عني.

– ظل يتابعني فترة، ثم ولى، ولم أعد أراه.

رمقته بحنو وسأل.

– أيائس من صلاحي.

ظل صامتاً يتابعها، يدحرج عينيه عليها، كلها، يتصيد الحركة، ويتابع الشعور.

– مضى وأخذ معه الكره لي.. ما أقسى أن تعرف أنك مكروه..

ربت على كتفها وابتسم.

– الكراهية التي يقهرها الحب، تتحول إلى حب عظيم.

– ما أعظم الحب لو لم تسبقه الكراهية..

– ... وإن أتت بعده!

– إنه الموت، فمن لا يحيا بدونه.

– كلنا نحيا به.

لاح على وجهها ألم مباغت، فأسرع وعيناه تحوطانها.

– لا تقصري حياتك على عاطفة واحدة ولا تخصي واحداً بعينه بها.

دفست يدها في جيب الخرقة، وأخرجت المسبحة. وضعتها حول عنقها فأفضى حياء، قالت في دلال لم تنجح في كتمه:

– وضح لي فأنتم خير من يحب..

ضحك، وأحكم خرقته:

- حياة تسيطر عليها عاطفة واحدة، حياة تفتقد الحكمة.

- وهل في الحب حكمة.

- إنه الحكمة بعينها..

- أو حين يهزمنا ويفضحنا، أو حين تشرق العين بالدمع، ويختلج الفؤاد ونكتوي بنار الهوى وألم البعاد، أو حين ينفلت عيار العقل ونبدو كريشة تذروها خفقة ريح، ورقة نسيم.. أو حين نظل ندور ونهيم، ولا يبدو أمامنا شط ولا بر، وتتوه في العين الأشياء.. ولا تبقى سوى اللوعة. أو حين يحدث ذلك كله.. تكمن الحكمة؟

- نعم لمن يعقل الحال.

- وهل حين نحب نعقل.

- ومتى التقى الحب والحكمة؟!

- لا تحيرني..

- 6 -

- احلف أن الشيطان خاواها..

جاء صوت الصبي من داخل المحل محتجاً.

– لا يقوى عليها.

نحى الرجل مبسم النارجيلة، وكان الدخان عبأ فتحة المحل، هش الصبي بقاياه واعتدل واقفاً، توقع الغضب فلزم الحذر.

– عم تتحدث يا ولد؟

قال بصوت واطئ ومقصود، وكانت فتحتا عينيه ضيقتين.

– وهل هناك غيرها؟

نهض غاضباً، فسقطت النارجيلة، وسقط الجمر، واستوى الحبل مرتخياً على الأرض. جذبه بقوة، فارتج على الصبي فأسرع قائلاً:

– إنما قصدت أن أقول.. أنها هي.. كما هي..

أفلت قبضته عنه وضحك هازئاً.

– ما تصورت أنك تعشق!

ابتسم الصبي غضباً وواصل حذره.

– ليس عشقاً أن تقدر الجمال.

جلس التاجر خلفه منضدته، أعاد النارجيلة، ووضع الجمر، أحكم الغطاء وتناول المبسم، شد نفساً وآخر وثالثاً، رمى ببصره على مدخل السوق، كانت الصورة لا تزال عالقة، الخطوة الرقيقة، وضحكة

العينين، وانضمامة الصدر، حدَّث نفسه بأنه لا يكفي أن يراها هنا، أو يراها هناك، حين يأتي بالهدايا ليرضي الحاشية وينال كرم الوالي ومنته.

– لكنهم يا ولد يقولون أن الشيطان خاواها..

– أتصدق يا سيدي؟

– فيها أصدق كل شيء.

ضحك الصبي ساخراً متهكماً، علا صوته ومط ضحكته فاحتد التاجر.

– أتسخر مني يا...؟

انسحب الصبي يعيد ترتيب الأقمشة.

– لم تجبني.

– أخشى أن تسبني.

– قل فإنك تستحقه..

– هل لا يعنون الشيطان يا سيدي.

– من يعنون؟

– الوالي..

نحى التاجر المبسم وفز واقفاً وكان العطر يسبقها، والنور يتألق من عينيها، خرج الصبي مسرعاً وزاحمه النظرة، لكزه في بطنه فتألم، أدارت رأسها نحوه، ففغر فاه، وارتخت يداه، بدت الحركة كقطرة ندى بللت شوقه. حدث نفسه بأن الله حين خلق الجمال مشاعاً للكل فلماذا يحتكره واحد من الناس؟. لم يقو الصبي على المقاومة، كان النور آسراً، وفي النور الباهر تتطاير الفراشات ثم يطيح بها الضوء.. اعتلى بالة القماش، فزاد الأثواب، اختلطت الألوان، نادى على بضاعته، أدارت رأسها، خطفت نظرة، ومضت.. هوى بيده على الصبي.

– لم يبق إلا أنت..

زام الصبي، تدلى رأسه، وارتفعت شفتاه.

– لنا فيها حق.

زجره فمضى يعيد ترتيب الأقمشة، أحس بكمد يحتويه، وبأن عينيه على وشك البكاء، واجه سيده، أراد أن يقولها، أن يزعق في وجهه، أن يكون طرده في صدمة سيده. أراد أن يخرج هذا الشيء الضاغط على رأسه، والذي كثيراً ما ستره في داخله وكتمه، حاول فتح فمه، شد رأسه وعنقه، فرد ساقيه، ورفع ذراعه، وهمَّ.. كاد أن يقول، انفرجت الشفتان.. ثم.. ثم انطبقتا ثانية.. ولم يقو فتمتم في حزن:

– أعرف أنكم تشترون كل شيء.. حتى الوالي نفسه.. لكنكم، وخذوها من هذا الصبي المنهزم.. ستعجزون عن امتلاكها.. لا التجارة ولا المال ولا غيرهما بقادر على إغوائها..

وانسكبت دمعة ساخنة، أسرع فمسحها:

– ولكن.. متى تدرك هي ذلك؟

انكفأ الصبي مقعياً، على حين اندفع التاجر. وقف أمام الرجل الكبير هائجاً.

– لم يقف أمامنا شيء.

وأشار بيده إليها، فتعلقت العيون بها فازداد غضباً. رمقها الرجل الكبير والحسرة تأكل عينيه.

– كيف وهي لا تعدو أن تكون محظية؟

– في هذه الحالة لا نستطيع.

– لقد اختارت.

– لم يعد لها خيار.

– بل هي اختارت..

– لم نتعود هذا منك..

- ليس المال كل شيء..

- أأنت تقول ذلك؟

- أين غاب عقلك؟

- لم يعد فيَّ عقل!

- أنسيت أننا نثري على حسابها..

- هذا لا يكفي.

- وماذا يكفيك.

- أن تكون لنا..

- ليس المال كل شيء فتعقَّل.

- نحن نشتري كل شيء.

وقفل راجعاً، محتجاً وغاضباً.. صرخ في حدة:

- إنها تبيع نفسها.

صكَّ مسمعه مقطع حاد.

- لا تلمزوا النفس.

التفت فرآه: الخرقة، والمسبحة، والوجه الأشهب العريض، واللحية تتدلى على صدره، أشاح بيده ودلف إلى الداخل مغتماً.

رموا بأبصارهم بعيداً فرأوه.. سبقته الرائحة، تعودوا عليه فلم يعودوا يتأففون منه. تهتز المبخرة في يده، ويتصاعد الدخان من فتحات الغطاء عالياً ومنتشراً. وكان الدخان يبعث العطر، وينشر الرائحة.. كان قد أضجرهم، وأقلقهم حين سقط عليهم فجأة، أخذتهم الحيرة، ونشب فيهم القلق، تلازمه المبخرة، كما تلازمه الخرقة والأسمال. تتهيأ المحلات للبيع، ويقف الصبية للخدمة، ويتربع التجار على كراسيهم، تتوالى أمامهم حبال النارجيلة، وتلفظ المحال ما بداخلها، وتتعرى الأثواب للعيون..

ويمرق كالسهم داخل المحل، يدور بمبخرته في المكان. على الأرفف والأجولة والبالات.. يحرص أن يعمهم جميعاً بدخانه.. ويحرص أكثر أن يطوف حول رءوس الكبار، كان يتلذذ حين ينفخ المبخرة، فينتشر الدخان ويتوزع، وحين يتأكد أنه صنع غيمة من دخان تختزن القطر يترك المكان ويمضي ويظل يلف، ويداوم الغيم انعقاده، لا يمد يدا، ولا يولي أحداً نظرة، لكنه ما كان يمتنع عما تجود به الأيدي.. على غير العادة ظل صامتاً لا يتكلم، وإن ناوشه الغلمان، وصبية التجار. تركوه فالحالة لا وقت لها. وقف أمام الدخان الفخم، وتسمرت قدماه.. كاد الجمر في المبخرة ينطفئ، وهو يحدق في التاجر الكبير.. ظل واقفاً يحدق فتوجس التاجر خيفة وأشار إلى صبية، ذهب إليه الصبي وسأله:

– ألا تدخل!

ظل صامتاً لا يتكلم.. رغم همهمات تصدر منه متقطعة لا تبين.

– أمعك بخور؟

ولم يخدش الصبي صمته ولم يخرجه من سكينته.

اندهش التاجر فنهض وتقدم إليه.

– كُف عن التحديق.

وانطفأ جمر المبخرة، ولا يزال يحدق.

– لا تجعلني هزأة.

علق مبخرته في ذراعه وزاد من صلب عينيه.

– لا تجبرني على إيذائك.

لم ينطبق الجفنان، ولم ترمش له عين.

– لا ينطلي على هوسكم.

اهتز فكه وزمَّ شفتيه.

– ابعد فإني لا أطيقك.

رمى المبخرة، تناثرت وتطاير الرماد، أصاب الرماد وجه التاجر فهاج، حاول أن يزحزحه فلم يستطع. اتجه إليه بغل وقال:

– ماذا تريد.. قل ماذا تريد فلست فارقاً مثلكم؟

اهتز فكه ونطق، خرج الصوت وئيداً وخفيفاً.

– إني كما ترى خفيف، ولا أملك سوى أسمالي البالية ومبخرتي، وها هي ضاعت مني..

أشار التاجر إلى صبيه وزعق:

– أعطه ثوباً وخلصني منه.

اعترض في قوة.

– ليس الثوب ما أبغي.

– ماذا تبغي إذن..؟

استدار إلى صبيه والغضب يسبق نطقه.

– أعطه المال ليشتري المبخرة..

اعترض في حدة.

– وليس المال قصدي.

زفر التاجر وشخط:

– إذن ماذا تقصد؟

تفرَّس في وجهه فبان له ذعر واضح على الوجه.

– إني كما ترى خفيف، لا يقيدني شيء..

ضحك ساخراً وقال:

– ومن قال أنك ثقيل؟

– أريد أن أقول أنك مقيد وعليك أن تتدبر الأمر.

– أي أمر؟

– الرحيل!

– الرحيل إلى أين..؟

أشار إلى السماء وتملى وجهه، ارتعد الرجل لذكر الرحيل، كأنما جاءته الإشارة فجأة، سحب يده، حاول إدخاله الدكان فأبى. لاطفه وقال:

– أيشغلك الرحيل؟

– لا تسلني واشغل نفسك بالتدبير.

ضحك غصباً وقال:

– قل لي كيف؟

– أعط ما لله لله.

جاراه في تلطف لم يخف ذعره.

– إننا نجزل العطاء والله أعلم..

– الأحمال ثقيلة.

عاود التلطف والتبسم.

– ما نعطى يخففها إن شاء الله..

– فكر بعين البصيرة في الأحوال فأنت.. رئيسهم..

ثم أشار إليهم.. تفرَّس فيهم واحداً واحداً.

– قل لهم أن يفتحوا الأبواب، ويخرجوا الأموال.. ويتدبروا الأحوال، فقد يأتي اليوم الذي نحتاجكم فيه، ولا نجدكم.

ولملم أسماله وخرقته ومضى، وظل التاجر الكبير واقفاً، جامداً ومغتماً. قالوا بعدها أنه لم يعد إلى المكان ومعه المبخرة، كان يعود بدونها. لكنه كان إذا ما نزل السوق، استقبلته الرائحة.. فقد علق التجار المباخر في محالهم، وأجزلوا لها البخور.

صادته عيناي وهو يحدق في التاجر، غاضباً ومنفجراً. كان الجمر يخرج من عينيه، وكان الذعر ينضج على ملامح التاجر.. يحيرني ما يحدث، كلما خطوت رأيته، أكان يتتبعني؟.. فلماذا حين أسير في المرج الأخضر، لا أرى سوى الرءوس الواطئة والظهور المحنية؟ ولماذا أرى في العين، وفي النظرة الارتياب؟ وأنا من أعطيتهم، أفتح أبوابي لهم.. وأغدق العطاء. لماذا خبت في عيونهم اللهفة وأنا أداوي جراحهم، وأمنحهم فؤوس الأرض، وكساء الشتاء، على حين تدور اللهفة من أشداق التجار؟

لماذا يحرص هو دونهم جميعاً على تتبعي: تظل عيناه راقدتين فوقي لا تنهضان.. أضحكني منظره أحياناً، لكنه اللحظة سحب مني وجداناً كان مكتوماً، تشدني أسماله وخرقته، وعيناه، حتى السوق لم ينج من تتبعه لي.

ظننت به السوء فمن لها حياة مثلي لا تحسن الظن بالناس.. وإن بسطت لهم الكف والقلب. يخطئون حين يظنون أنني أجهل ما تدمدم به نفوسهم، فأمامي تتكشف الأقنعة ويتعرى الداخل، يمور دوماً ولا يستقيم.. هذا الذي صرخ وعابني في السوق، يجيء القصر راكعاً يقدم المال والجواري ويحسن السماع. يحسبونني بلهاء، ويسحبون من جمالي لمسة الذكاء. لكنني كنت ألمحه بأسماله البالية، وبخوره الصاعد، أنتفض.. أكان منظره يثيرني.. أم أنها المسبحة تتدلى من رقبته، وتهتز كلما اهتزت

بطنه.. رغم أنه يبدو وللوهلة الأولى نحيفاً مقدداً. كثيراً ما كتمت ضحكة راودتني كلما وقعت عيناي على جيوب خرقته، فتحات كثيرة، دروب ضيقة تتفرع عن طريق جهم الشكل متين الامتداد. وها هو الآن يدهشني بشيء فوق الخيال. وكم غالبت الخيال فغلبني، فكلما عشت واقعي عشت خيالي.. وكلما نظرت إلى وجوه الناس العاديين تطفر عيناي بالكآبة والمعاناة كلما كان الخيال ملاذاً ذاخراً بالطهر وجمال الروح.. ولكنه الآن كاد يقع أمامي وعلى مقربة مني، تلاشى الواقع في لحظة وبدا الخيال والحلم عيناً تبعث الدفء ويداً تربت بالحنان.

كم كنت أرتجف حين أراه، والرجفة حين تأتي منه تشبه الخوف من المجهول، وتظل تضغط على النفس.. بدا لي أنه تتبعني حتى في لهوي، وتهدهد على أوتار مزهري، ثم جثم كالكابوس.. والآن أراه.. أنظر إليه وأتملاه، تحدوني الرغبة في انتشاء، ودفعني إحساس مبهم في الداخل أن أمسك بهذا الدفق، المبثوث منه حتى يهدأ جسدي ويستكين القلب، واستسلم لخدر ترتخي له الأعضاء.

– كأن أثقال الدنيا هبطت عليك دفعة واحدة..

انتفضت مذعورة، خيِّل إليَّ أنه لمس خدري وأحس بشعوري فجاهدت نفسي وقلت:

– بنفسي غم لا أقوى عليه.

تأملني، غاصت عينه فيَّ، بدا لي جوفي عارياً، بأحشائه وتكوينه، أحسست بخوف طارئ فلملمت ردائي حولي، خشيت أن يتعرف فيحزن. تابع حركتي وابتسم، فخجلت، بان على وجهي الحياء.. مد يده، بسط كفه، فسرى الدفء الصاهد يتسلل حتى العمق، كدت أحس به ينساب في مجرى الدم.. ثمة دغدغة ترعشني، ففرحت وكتمت الرغبة في الانتشاء.

– لا تكتمي شيئاً..

وذهلت، أخرجني صوته من دوامة تجتاحني، ورغبة بدأت في التسلل. أسرعت خجلى، على ندرة ما أخجل.

– بي فرح يشبه النشوة.

– لا تجعليه يفك منك.

– أخشى عليه منه.

– المكابدة طريق المتعة.

فغرت فمي دهشة

– المتعة يا سيدي.

– نعم المتعة، ولست سيداً لك..

– 9 –

يخرج اسمك من بين الشفاه بلون الورد. وشفتك كحبة الكريز، حمراء دامية الحمرة.. ووقع النداء باسمك ممزوجا بحرارة اللهفة، وفجأة التوقع .. والصوت مسحوب منغم، الجا .. ريـــ .. ة. وحين يصل اللسان إلى الحرف الأخير الساكن تهدأ النفس ويلتاع القلب. فالخضرة حين تكسو الأسماء تصنع خميلة وينمو الثمر. وثمرك طازج مشتهى لمن يعرفه ويقف على كنهه. لكن العيون المتربصة بك لا تزال نفوسها سادرة، لا تعلم أن هناك التقاء ضوئياً، وإنك إحدى النقط المبهرة غشيها الحسن فغاب عنها المعنى.

يريقون النظرة، ولا يروي سوى الجسد الممشوق، والصدر المتقن الصنع، والهامة المشرئبة، والحاجبين العريضين والامتداد المنحوت في الساقين ورقة الخطو.. وينسون طاقة النور في الجبهة، ودفق النور في العين، والانبهار في القلب.. معذور من لا يرى إلا بعينه، غافل من لا يدرك الكنه ويكتنه الخبيئ.

قال الأحباب عند الأعتاب: وصلت.

وصاح رفيق لي: فنيت فغبت.

فطأطأت رأسي، فظنوا أنها اللحظة، تذاكروا فتقاطرت خمر المحبة على أشداقهم وأسبلوا الجفون. ولما عرفوا أنني مشغول بها بكوا. تحلقوا بي، وناوشتني العيون.

– ونحن الذين ظنناه بخمر المحبة سكر.

وتخضلت لحيتي بماء العين ولزمت الصمت، طلبوا مني إيضاحاً فقلت:

– أحبائي، طاف بي النور الأرض والسماء، وشربت من بحر الأفلاك ونهر الحياة، ولا يزال يا أحبائي .. لا يزال يمرح في العطش.

طأطأ صفي من الأصفياء ثم قال:

– أفيها الري.

وجدتني أقول دفعة واحدة.

– أحبائي.. كلما ظننتم أنكم توغلتم ووصلتم كلما أدركتم أن البدء نقطة ذات مسرى طويل.

واقترب مني شيخي، وازداد لصوقاً بي، كانت عيناه بحيرتين من الصفاء.

– قلبك يا أنت واحدة منداة وسط قحل يابس، فانشر نداك حيث يجب، واسق القلوب بماء المحبة.

ارتخت مسبحته ذات الألف حبة على وركه الأيمن وتابع يقول:

– يا أنت.. اقطع الحبل قبل أن تضيع فليس ما يشغلك غير قيد جديد.

وضع يده على كتفي وضغط في حنان.

– كان واجبك أن تسقط الأغلال عمن يحاولون.. لا أن تضيف غلاً جديداً.

قلت، وقلبي يمور.

– ادعُ لي.

قال وبسمة تعلو وجهه:

– آنسك الله بقربه.

وظل قلبي يترنح في الحفل.. والحفل حفل الأربعاء.. والليلة جفا المنام وحلا الذكر. فالدم لا يزال ينسكب، والآهة حين علت ارتج لها الكون وهاج الموج. وظل اللسان متدلياً فوق الصدر يطلب الري، وطاف القلب في بحار النور والشهادة. وبقي العطش، ونحن في مقام اللائذين بك، نستجير برضاك. يا صاحب القلب وحاضنه أُحجبني عمن سواك، وأعني على من أدركتهم الغفلة.

– 10 –

مزهري حصاد ليل الأنس، وسرج الجواد، وجوادي يرمح في غيمة عطر. ويقفز هامات المبخرة، ويتلوى الدخان يحمل عبق الصندل

والعود، فيترنح القلب وتهيم الأوتار، فتنتفجر الألحان غصناً طرياً يسقى بماء العطر، يسحبني من يدي فأراقصه خفيفة رفافة كالفراشة..

– أنت زهرة بللها القطر.

وأقول في نشوى أجاهد أن أحبسها..

– مولاي.

ظل يحوم حاجلاً كعصفور، وتسترخي الورقة لقطر الندى وأهمس:

– أنت الندى.

ضحك، فارتعش الدخان.

– أسرعي به.

جئت به من الخوان كأساً ممزوجاً بماء الورد، احتساه دفعة واحدة وتصاعد النغم، تمايلت جواريه، ضربن بالدفوف والمزاهر، بدا الطبال لا يتحكم في أصابعه، ولا يطاوعه جسده، لكنني رقصت.. ونفضت عن نفسي الرداء، ولم تبق سوى الغلالة، وارتطمت الصاجات النحاسية، والصوت المصكوك منغم، والمبخرة مشتعلة، والبخور يتطاير، ورائحة العود تذكي النفوس.

ودار في المكان.. وظل يدور، طار وحط واحتواني. فصرخت الجوقة حوله وكثيراً ما تصرخ:

- مولاي الليلة هائل.

غمزت له بعيني فأخذني، أدار ظهره لجوقته فحلا في عيني غنى بصوت مشروخ.. ويداه تجبرانني على اللصوق به..

وغزال زان بالقامة ردفاً بربريا ..

ضرب العواد على وتره وقال

- ما أحلى المعنى يا مولاي.

أمالت عازفة رأسها وأصخت لرنات مزهرها وقالت:

- كأنما هي المقصودة.

ابتسم الطبال وطاوعه جسده.

- لا يعلو ردف على الردف البربري.

ضحك واستدار لهم فتوقفوا.

- ما أحلاه لولا أنه لشاعر مخنث.

كتمت ضحكتي. بان لي في اللحظة أن هذا الجو، هو مبعث هذا الشعر وأن صحبة قوية تربط بين الاثنين، ولا أدري لم طاف بذهني فجأة

منظر الظهور المحنية في المرج الأخضر. تيقنت أن الترف يستوي الفاقة في إفراز التخنث.

لوى ذراعي فانحنيت، حدَّق في صدري فأغضبت، وانتفخت العروق وأحسست بمسرى الدم يكاد ينفجر، ارتددت إلى الوراء مبتعدة، خشيت النظرة وارتعبت منها. الهوس يطفر منها، وبدت الحفلة متعة زفاف، وكأنما كنت مسوقة إلى قدر لا يتجاوز المتعة.

جفلت حين أمسك بالغلالة، كان جسدي واضحاً ومجسماً. وكانت العازفات يتأوهن، وكغيمة أفرزت ما بها أسقط الغلالة. وضعها على وجهه، يتشممها بنهم جسور. راقبته في حسن مهتاج، تابعت لمسات أصابعه وحركات يده.. حزَّم جسده بالغلالة ورقص. تلوى وطرح ذراعيه في الهواء. أكثر من الدوران والتثني، تنفس في عسر، ونزل منه عرق غزير، وتقدَّم نحوي.

– يا إلهي كم أنت مليحة!

صاح، واحتضن دخان المبخرة.

– ما أعظم اليد التي أبدعتك!

طرح يديه بالكلية عليَّ واقتادني.

ظهرت الطنافس حمراء بلون الورد، والضوء ينسكب في اهتزاز مرتعش والنغم الممزوج بعطر الصندل، يزاحمنا. والرغبة واتتني. تأرجحت

الأحشاء ثم تقلصت، وأجهدتني، والعطش لا يزال. العطش يتمدد داخلي ويتمرد. حدثوني عنه جواداً رامحاً صلباً.. لكنه أطبق العين في انكسار. لملمت نفسي وانزويت. أسرعت الجواري، أحطنه ولملمن أشلاءه. ثم واجهني. وكانت الصفعة دامية، طردهن في عنف واستدار.

– أتعصينني!

لذت بالصبر، وتحسست الصفعة.

– ما أنا إلا جاريتك.

سمع صوتاً ندياً يترنم."فسقيناه على الورد شراباً ذهبياً".

أخذته عبسة شديدة من الهم وقال:

– إذن كيف لم يحدث؟

تناولت الغلالة وقبل أن أطرحها على جسدي سارع في حدة.

– أبقى كما أنت.

– لا يليق في حضرتك.

– لا يليق سواه.

وطلب البخور فواتاه وسألني.

– أأنت ممسوسة؟

بان له اندهاشي فواصل:

- إذن بم تفسرين ذلك؟

جاهدت حين قلت وكان داخلي يهترئ.

- ربما لم أحل في عين مولاي.

- أنت تعرفين أنك جميلة وبك طاقة هائلة على الإبهار.. لكن ما حيرني هو اللسعة التي أحسست بها حين.. اللصوق بك..

ضحكت وقلت:

- تقول اللسعة يا مولاي.

- نعم كأنما كان بداخلك جذوة متقدة.. جذوة حقيقية، أفقدتني توازني..

اقتربت منه وهمست:

- كنت عطشى يا مولاي.. كنت عطشى من زمن طويل.

- أحين تعطشين تلسعين؟

ضحكت وكان للضحك رنة الوتر المشدود.. وخفقة الشهقة الملتاعة.

- حسبتك الري والندى.

نظر إلى وجهي، لمس مكان الصفعة وقال بأسى.

– لقد كنت فظاً معك..

ألبسني الغلالة، فعانقته واستكان كطفل وديع.. وظلت الصفعة على وجهي ترسل ألماً في القلب.

– 11 –

– يا..

وغطتها غيمة من حياء.

– معك يا جارية!

حمل صوتها نبرة الأنوثة وتكسرها.

– صوتي يصل إليك!

– رخيما.. وحلواً.

عاودها الحياء، فأطبقت جفنيها، وأسبلت الرموش، كاد الدم ينفر من الوجه ويخرج من العروق. وكان في مسراه – للحظة – التنميل والرعشة.

– صوتي يعجبك؟

– إنه صوت لقلاق الفجر يؤذن بالنور.

– كلامكم يا أصحاب الحالات حلو..

ولم المسبحة، وضعها في جيبه، مسح وجهه بكفه العريضة. وربت على كتفها:

– يا جارية.. الأبدان دنيوية، ولكن القلوب سماوية.

أدركت ما يرمي إليه، فانفرجت شفتاها في لهفة.

– لو ألبس ثيابكم..

جذبته من كمه، فتمزق. حاولت أن تلملم المقطوع فعجزت..

– ألا ترتدي ثوباً آخر..

هز رأسه، واعترض، بدا لها الاحتجاج في عينيه فأسرعت.

– إنه لا يكاد يستقيم.

– لكنه يكفي وزيادة..

– أتريدني أن ألبس هذا الأسمال.

– لسنا معلمين بها.. حتى تلبسينها.

– ولم تحرصون عليها؟

– إنما هو التخفف.. فلا تشغلي بالك.

دارت حوله، فردت ذراعيها، وملأت صدرها بعبق الرائحة المنشورة.

– قلبي يا..

– معك، ولا تهتمي بالأسماء.

– قلبي يا.. أنت.. يحب.

زجر القلب وواصل.

– كلنا يذوق الحب، ويناله بطريقته.

(النيل من تحتنا ينصت، سكن الموج وأرهفت الآذان، والطريق محفوف بالآلام. والوقوف معها اختبار.. وهي تحتاج إليَّ.. تمسك القلب وتدعكه، ترمي فيه البذرة، فيعشوشب الحب، ويصنع الخميلة. والقلب حين تصله الومضة يزيح ركام الفساد الذي اعتلى الجسد، من لي بالشيخ فيحكم؟.. من يدرك معي أن ومضة النور الخبيئة ستنداح هالة من النور يغشى العين؟..

آه لو عرفوا – وقد لحظوا – لحكموا عليَّ، وعلقوني على الخشبة أمام السارح والبارح.. وربما فصلوا رقبتي.. وأسملوا العين.. أكان يجب أن أمزج الحبين؟ أراني قادراً على اجتياز الاختبار. الاختبار بلاء، وما أكثر البلاء في أيامنا.. الحب ليس مشروطاً فالمحبة الكلية غامرة تفيض

على الخلق والوجود كله، وإذا لم يكن الحب لهم فلمن يكون؟.. والحب مبثوث في الكون باقتدار.. فمن يعثر على البذرة، لتصبح خميلة، أتراني عثرت عليها؟)

– حدثني عن الحب.

– نحن نعيشه.

– صفه.

– ما وصف بالكلمة ينعدم.

– ألا تزدني.

(كيف تخوض في الأسرار، والمحبة الكلية سر الأسرار لا يجوز الخوض فيها. فكيف لي بعبارات شرح القدس والتقديس والسمو والغناء).

– ألا تحدثني.

تاه واحتار، جاس بيده في لحيته، ثم التقط حبة نبق.. لمح الموج في انحناءته، مفتوح العين، مرهف السمع، فتمنى أن ينقل الحب إلى الشقوق كما ينقل الماء.

– إذا كشفت عن قلب المحب قلباً ليناً مكسوراً، قد ملأته المحبة، وغفل عن غيرها.

– كيف إذا أحببت غفلت؟

– إن الحب على الحقيقة ينسي كل شيء..

– لكنه لا يعوض كل شيء..

– هذا كلام التجار، فليس في الحب خسارة.

أحاطها بذراعيه، فمشى الموج وئيداً، وتحركت الغصون موشوشة. وتماست تحت الأقدام حشائش المكان.. اضطربت، واهتزت أعطافها. خرج النفس منها بصوت الآه.. فزمها وقال:

– لا تخشي، فالحب هو الصفقة الرابحة..

– أتراني أستطيع؟

نظر إلى أعلى، فلمح في السماء نتفاً بيضاء ترجيها ريح رخية.. وسرعان ما انضمت، فتماسكت، صنعت في عينه غيمة، حدث نفسه بأنها تحمل في جوفها، القطر والري والندى. فمتى تعصر الغيمة قلبها، وتعطي عطاءها؟

– من علامة المحب على الحقيقة.. أنه لا يُذل لغير الله..

– أو أستطيع..

– يا جارية.. ليس في الوجود محال.. خطا بها إلى النيل، فاصطفق الموج راقصاً..

– حين تنبثق من المحبة قوة الود، وود الفعل.. لحظتها لا يحب المحب، جباراً، ولا متكبراً، ولا ظالماً.

– أتيت بالمطلوب.. وساعدني.

(مزهري خفق قلب نبض بالحب، على ضفاف النهر، والنهر يصدر موجه مرجعاً. والقمر يبوح بالعشق والأشياء حولي تتلاصق وترتجف، وأميري لا يزال يركب الجواد ويمخر الدخان. والليلة ربيع الملهمين.. والقصبر، موئل الشعراء والمداحين، وأنا أتعرى وأرقص. والوزير يطلب ليلة. يتشفى حين أتأبى.. فإلام أظل تعتصرني الأيدي، ويأتي الجفاف .. أموت من الجفاف .. وأخشى أن يكف العطاء) .. دفست مركوبها بقدميها، احتضنت مزهرها وتهيأت.

– إلى أين؟

– إلى القصر..

وسافرت عينه وراءها. وجلس على الشاطئ يحدق في النهر.

– 12 –

التلال والجبال وكهوف الخلاء. والخلوة مقصد العباد. وملاذ الزهاد من سطوة الزمان. والطريق إليه من خلوته وعر وملتو..

جاء ملتاعاً فلعل الشيخ الزاهد يعطيه الأمان ويحمل البشارة. وقف على قمة الجبل. خيِّل إليه أن السماء قدر شبر منه. وتناهى له الأسفل على بعد السفح وامتداده نقطة غير محددة، تختلط فيها الملامح وتنبهم. بدت المدينة في عينه صغيرة منمنمة، بريئة، شربت من ماء النيل وتعطرت. هز رأسه وفرد ذراعيه بطولهما.. وقبضهما على فراغ. بدا يراجع نفسه ولا يصدق. أيحمل هذا الجسد المنمنم كل هذا الفساد؟

رمى بصره إليها وظل ساهماً.. تنبه على صوت شيخه فأدرك أنه يقف على قمة المقطم. وأنه في العلو شغلته السماء. لاصقة الشيخ وقال:

– كلما رأيتك تخرج من الخلوة، وتنظر إلى المدينة ترتج.. ألا زالت تشغلك.

– أحملها بين جوانحي.

– لقد هربت منها.

– لأعود إليها.

نطق الشيخ في تحسر.

– أربعون ليلة ولم يفلح الذكر في النسيان.

– حملتها معي لتشهد ذكري.

ألقى الشيخ عليه بصره في يأس وقال:

– وأنا الذي حسبتك نجوت.

– فيم النجاة يا شيخي؟

– في التقوى والمراقبة.

– زدني أثابك الله.

– فر من الخلق ولا تأنس إليهم.

– كلما فررت منهم. ازددت قرباً إليهم.

وتبسَّم الشيخ غضباً، نضح القلق من بسمته لكنه مسح رأسه بيده وقال:

– سقى الله الطائعين كأس المحبة. فهم في شربهم عطشى وفي عطشهم ري يدوم .. فاجتهد في فكاك نفسك.

(الخلاء.. البراح.. والنفس القلقة، والصدر المحزون.. هنا ينفسح المحدود ويمتد، وينطوي المكان. وتظن أنك محور الكون، وقلب الوجود. يخيَّل إليك أنك وصلت، وأنت ما زلت مقيداً. أنك تعرفت، ولا زلت جاهلاً.. أنك هربت وما زلت مشدوداً.. دائر في فلكي الحركة والسكون. وتأسرك من بعيد تلك النقطة المعتمة. النقطة التي خلت من التكوين والتحديد. النقطة البيضاء والمعتمة التي يمرح فيها الفساد. ومن يقوى على فساد هذا الزمان؟

وكان يعلم – ليس منا من يجهل – لكن من يتقدم ويفعل، أتيت إلى الخلوة هرباً، تصورت الروح تنسكب في أعطافك، وأن النور يضيء داخلك. وبرغمك تصطادك، وتكبر في عينيك، وتزداد إعتاماً. خلوت فما وعيت وما أدركت.. أكان في المشاهدة الغياب، أم في الغياب الحضور..؟.. وأنت.. وهي.. أتستطيع أن تزيل عنها ما علاها وأحزنها.. أتستطيع أيها الهارب إلى الخلاء.. أتستطيع؟).

أحكم عباءته، وشد قامته، سلَّم على الشيخ ومضى لمح وهو يترل في حذر، امرأة بالية الثوب، شعثاء الشعر، لا يكاد يسترها شيء، تبكي في صوت محزون. وكان الصوت مخنوقاً يبعث على الأسى. تقدم منها وسألها:

– من أنت.. أثابك الله؟

نظرت إليه في دهشة مرتعبة وقالت:

– ما كنت أتيت لو عرفت..

– أليس لك بيت أو أهل؟

فردت ذراعيها، كأنما تحوط بالكون كله.

– ضع – يا أنت – على جوارحك ميزان القسط ..

– يبدو أنك فقدت الأهل والسكن.

– يا أنت.. الواحد منا مسكنه حيث يدرك. ولباسه ما يستره، وزهده في قوته.. فانظر إلى شوقك وامتطيه.. وإلى صبرك فتوسده.

– أأستطيع عوناً؟

– كيف وأنت العاجز.

أذهلته المرأة؛ فحزن وتألم، أحس بنفسه مكشوفاً، فتقدم منها وقال:

– فيم تنصحينني؟

تفرست في وجهه، وتكومت.. حدثته، وهي ترنو إلى البعيد..

– فلتسق الآلام شقوق الأبدان، حتى ينصهر الحس ويلتاع الفؤاد ..

أدارت رأسها نحوه فبان له الذهول مرسوماً.

– يا أنت.. شمر عن ساعدك، ودع ما يتعلق به المخادعون.. يا أنت.. لا يعيد للمسكن بهاءه إلا من أقامه..

أحنت رأسها، فلم يبد منها سوى كرمة من الشعر.. ولفهما الصمت وظل ملاصقاً لها.. خدش الصمت وقال:

– ألا تزيدنني؟

رفعت رأسها وقالت:

– انزل.. فلعلك فطنت.

ولاح له الكون واسعاً وعريضاً، وبدا له المقطم ذرة خافتة الملمس ضائعة الملمح، وتبدى الأسفل – في نقطته المعتمة – جرماً وامتداداً، بيوتاً وشوارع. فحدث نفسه بأن الآلام ماء الأبدان.

رأى الحزن يمشي في الشوارع ويطفو على الوجوه. رأى الناس مهمومين ومحزونين، رأى النظرات تائهة، والعيون زائغة والأرجل تتخبط. رأى الظهور تنحني والشفاه تحدث نفسها. أصابه الهول فأرخى قلبه وبكى. البكاء طهارة للروح. ودمعة المحب ضوء الوصول. وفي العذاب تتخمر النفس وتنضج الحقيقة. والطريق إليها طويل والطريق مفروش بالآلام. والآلام لا تطاق. كان بيتها البراح كله يشقه النيل، ويغمره الطمي، وتحرسه العين اليقظى، والقلب الكبير؛ فما بالها الآن مسجونة بين أروقة القصر؟.. وأضحت الثمرة وليد عناء.. وكانت بيدرا يمتلئ بالحصاد؟ لكأنما هي الآن. تنتظر. تلملم أشلاءها وتنتظر.

فتحوا له الأبواب – والقصر فخم وعظيم – تنحى الحراس وأخلوه، واجه الرجل القوي.

– افتح القلب، ثم احكم.

ضحك الرجل في بلاط السلطنة، فتماست أعمدة الرخام. بانت نواجذه قاطعة. حدق فيها، ثم بتر ضحكته وقال:

– أنت!

- جاءت تشكو صاحبكم فقهرها.

- من؟

- الجارية.

ارتج ونهض، انطبق جفناه على صورها. لا يزال هدبها الطويل يتماوج في قلبه، ويبقى فيه الألم والوجع.. أرادها ونفرت، وخلفت في النفس حزناً.

- لقد كبا بها.

- من؟

- الوالي.. أم أنك نسيت؟

- ما خلا زمان من كبوة؟.

- ولكنك أيضاً لم ترحمها.

- تمهل فالجزع يفلق الأمل..

- الأمل!

أحكم عباءته، وتولته هزة قوية فصرخ.

- لقد أحكمتم قبضتكم عليها.

غضب الرجل الكبير، واحتد في وجهه.

– لا تنس أنك هنا في حماي.. ولولا..

قاطعه في عنف.

– ألم السجن أحب إلي من ألم النفس.

– السجن!

وتمايل الرجل ضاحكاً، أخرج الكأس وشرب، أشعل سيجارته وتمهل قائلاً ..

– مالك تحمل الوقف غير ما فيه.. كما أنني لست الوالي فتعقل وتأن..

– ألم تسقط أمامكم؟

– من؟

– الجارية

– هكذا أنتم يا أصحاب الحال دوماً تهومون.

– أمن يذكر الحقيقة يهوم؟

– يا رجل.. إنها في القصر كأميرة.

حدق فيها وقال:

– لقد استدررتم بها العطف.

- اعلم أنني قوي.. فلا تستفزني..

دار في المكان، ذاهلاً وهائماً.

- كان عودها قد صلب، ووضحت ملامحها، وتحدد فيها التكوين ثم حلت عن العين .. وحين تزني العين يضل الفؤاد..

خبط الكأس، وأطفأ السيجارة.

- ألا تنعم في القصر كأميرة..

- كيف لعبد أن ينعم بالحياة؟

ضحك في سخرية وواصل كلامه.

- أماتت.. لم أعرف..

- وهل بعد حالها موت.. أنكم تعصرونها ليل نهار.

- إنه قدر من يعطي.

- لقد سحبتم عطاءها.

- عطاؤها لا ينفد إني أعرفها.

- 13 -

وهامت عيناه، وارتفق يديه على المكتب. وطافت في خياله ليالي الأنس، وظل عالقاً في ذهنه هذا الجسد المتلوى الراقص الذي يختصه الوالي دون سواه.

وابتسم في غل وقال:

- إنه لا يزال ينعم بها في القصر.

- إنه يذيقها القهر.

- هي الأميرة المتوجة.

- وهو الظالم.

اقترب منه وصاح:

- ألا تشاركه الظلم!

لزم الرجل الصمت، أشعل سيجارته وحدق فيه.

- من لا يرفع الظلم فهو ظالم.

ظل على صمته حين رآه مهتاجاً ومحتداً.

- ليس الإغضاء طريقاً للوصول.

- لست في مجال العظة.

- ومن يكبر عليها؟

اقترب حتى يكاد يلاصقه.

- من شكا إليَّ ظلم ظالم ولم أنصفه فأنا الظالم. ألا زلت تذكر..

- يا أنت لا تزدني إيلاماً..

- لقد زنت بها كل العيون..

- رفقاً فالزمان لم ينته بعد.

- من ينشد أحلام الموتى تأتي أيامه سراباً..

استدار وقبل أن يخرج لوَّح بقبضته..

- كفاها ما بها.. ولا تكونوا أول من يجهز عليها..

عاود الرجل الجلوس على مقعده، أحس أن نبشا مدمماً يلعب بالقلب.

- 14 -

كان خطوها بطيئاً وهي تسير في ردهة القصر، والقصر مغمور في الأضواء والأنوار.

عكست المصابيح نفسها على المرايا وأعمدة الرخام، ولم يعد للجسد المتحرك ظل.

أسرع إليها غلام القصر يلطم خده.

– سيدي ينتظرك .. يا .. يا مولاتي.

كتمت ضحكة ساخرة وقالت :

– أصبحت مولاتك؟ ..

طأطأ رأسه في حياء وقال:

– لا يليق بك سواه ..

ألقت بنظرة على المرايا.. المرايا تفتقد الصورة المعكوسة، وصورتها تنعكس على العيون بألف لون ولون. وتشي المرايا بتفاصيل جسمها.

– مع من؟

– بمفرده

– قل له جاريتك الليلة متعبة..

ومضت إلى جناحها. الفراش وثير ولين، رمت بنفسها فغاص جسدها كله في ريش النعام، وانبعثت أضواء الأحلام الوردية من حبات

الثريا ومصابيح الفضة. انتعش القلب، ودار الرأس، أسندت جزعها، ورمت مركوبها، شبكت ذراعيها خلف رأسها، وشرد منها البصر.

(اهتزت أعماقي.. حين نظر إليَّ .. وحين وقف على رأسي وأشار إلى حركة الموج وهي تتجه إلى الشاطئ في دوائر واسعة.. تمنيت أن أكون له. لو يكون لي وحدي. هذا المخلوق المدهش لو يستولدني! لو يشعرني أنني مرغوبة عنده!.. بل أنا مرغوبة.. ألم تصطادي الوله في عينيه، والرعشة في يده، والآهة المسحوبة من داخله.. أيمكن أن أكون له، أعطيه ويعطيني.. أيمكن؟).

طغى عليها الحياء، وأصابها ما يشبه الهلع؛ فنهضت تداري بكفيها حمرة الخجل، حديث الأنوثة، وفورة الرغبة أمامه، ولو كان خيالاً.. جرم خلقي، وما كان يحق حين أدفأ الفراش الجسد أن يستدفئ الخيال.. والرغبة لا تنطفئ، ظلت تسيطر عليها مع تقلباتها على الفراش. ركزت خيالها عليه، فتأكد أن رغبتها لن تواتيها إلا إذا نجحت من خلال تجاربها في الوصول إليه. يحقق لها الأمنية التي طالما داعبتها وعاشت فيها، أمنية أن يستولدها رجلا لا يخذى.. رجلا يبهر كعين الشمس، يركب الصعب، ويمخر النيل، ويغتسل بماء المطر.. رجلاً يحمل عطاءها للجميع.. ولا يستأثر به، رجلاً واعياً حذقاً يستعصي على الأتباع والحاشية.

(جربتهم جميعهم.. أبيضهم وأسودهم.. طويلهم وقصيرهم، حرهم وعبدهم.. حتى الخصيان.. وسقطت في التجريب ثم حلا جسمي في عين الكل، وأضحى جسدي المبهر مقصد العيون، ونتف الجسم مرتع

الأعضاء.. والجلد تحت اللمس يتهرأ .. حتى انكمش وتجعد.. فما باله هو.. هذا المخلوق المدهش يتعلق بالروح المطمورة.. ما باله لا يعرف أن جسداً مهترئاً وموزعاً وموطوءًا.. لا يمكن أن تعود إليه روحه من جديد..).

وجدت نفسها تطوِّح بذراعها، وتلوي بوزها في أسى، ندت منها ضحكة زاعقة وتمتمت.

– ترى أينجح..؟ أيمكن أن تعود للميت حياته من جديد!..

وتقلبت في الفراش، ودخل السيد.. وزاحمه الصخب والجنون.. ترنَّح، والكأس في يده ملأى حتى الحافة، وخيوط منسربة من قطرات الخمر تنسكب على الذراع وتصل إلى الكوع، ثم تسقط على البساط.. رأت فيه أمارات العربدة فواجهته ببسمة تشي بالحذر والخوف.

– مولاي أنا الليلة متعبة.

اقترب منها، جسمه يهتز، ويده ترتعش، وفكه يتدلى..

– وهل يزيل التعب سواه؟.

فرت منه، فانطرح على الفراش وسقطت الكأس. فقد الجسد اتزانه، وفارق العود استقامته. خرجت عيناه من محجريهما في غضب، كادت ترى الشرر يتطاير من حدقة العين.. وهو لا يزال مبهوتاً ومذهولاً.. عجز عن نسيان ما حدث.. كان فشله معها جرحاً ينزف

داخله.. لازمته الرغبة في التعرف والمحاولة، ضايقه أن من سبقه اكتشف وحاول وكاد ينجح ويصل إلى المبتغى، ويدرك اللذة ويستقطر النشوة شراباً مسكراً، لكن الداهية لحقته. وهي منذ جاءت إلى القصر وعاشت بين الجواري والغلمان وهي تورث، تأخذها اليد وتسلمها للأخرى.. كانت مترعة بالأنوثة.. تفرَّس في ملامحها، وبدت ملامحه بلهاء مسطحة.

(ما بالها اليوم انحسر عنها رداء الرغبة. وباخت في داخلها فورة الأنثى.. ! لماذا ينضح من عينيها تقزز مخيف، ونفور شرس، وكان الوهج فيض من يرى؟!.. لماذا حين آتيها تتهرب، وكان حين يأتيها تغضي حياء.. لقد أورثني الهم ووجع القلب.. إعصار أتى وخلف الرماد)..

لاحت لها شفتاه المتورمتان، خدش سمعها طحن الضروس وكز الأسنان.. اختلج فكه وتدلى. جاءها شعور خائف بأن الليلة لا تحتمل.

رأته مكوماً على الفراش يئن، علا صراخه المحموم.. وبدا في عينه عارياً مكشوفاً.. تسللت نظراته إليها فارتجت، كانت النظرة تحمل انكساراً، اقتربت منه ولمست وجهه، ومشت بيدها إلى رأسه، تغلغلت بأصابعها في شعره.. وكان الشعر ملبداً ولزجاً، مست بباطن كفها أذنه فارتعش.. هالتها خلجات وجهه، فأسندت رأسها وأحاطته، سحب يدها ولثم، تقلص داخلها. وتأففت، نحى ذراعيها، ولاح له الجسم مكوراً والجزع في انحناءته وميله راسماً بدقة تكوين الصدر والخصر.. فشهق وجذبها بعنف، مالت عليه.. وفي اللحظة التي كادت تلاصقه فيها، وحمى الأنفاس اللاهثة تلفح الوجه، وتعكس الداخل المنفعل بومضات تنثال من

وهج العين، تحمل شبق الرغبة في المساس.. رأته.. رأته بركن عينها طيفاً يرخي العين، ويزاحم الأنفاس. ويفصل اللصوق.. وكان الوجه الأشهب عاتباً وغاضباً، نطرت نفسها، وبهت السيد.. استقام واحتد، صرخ، وخار.. صفعها، وصفق بيده.. أتاه الحاجب فنهره على تأخره، ثم أمره في صوت قاطع:

– الكرباج.

وقف الحاجب جامداً ومدهوشاً لا يصدق.

– تحرك يا بغل.

ظل واقفاً، يرسل بصره بين السيد والجارية.. وأدركته الحيرة.

– هات الكرباج يا بغل.

ورمح الحاجب، وأتاه به.. وما زالت الحيرة تطفو على وجهه رأى الغضب، والتوتر والذعر، فحدث نفسه بأن الأمر خطير، وأن السيد لابد سيخرج الليلة غيظه المكتوم.

لوَّح بالكرباج، فانهدم في عينها القصر، وضاع في التو بقية شعور نحوه، ودفنت بقلبها رغبة كان لا يزال لها بعض الظلال، وارتسم الرعب، وتحرَّك ثقيلاً على الوجه والعين والصدر. تقلص بدنه كله. وضح لها أن الأمر قد انتهى، وها هو يأتي بالكرباج الذي هو به على

أجساد الناس بلا رحمة.. الكرباج أو الفراش.. رفع الكرباج، فكادت تسقط.

زمجر في حدة.

– اخلعي الثياب.

– مولاي.

اشتد غضبه وصرخ.

– اخلعي وألا شبحتك.

– مولاي لا يستبد بك الغضب.

– مثلك لا يستبد بك الغضب.

– مثلك تقتل إذا عصيت.

– قتلتموني من زمن طويل.

– وسأعيد قتلك مرة ومرة.

– أتتشفى يا مولاي.

– أعطيتك وما فهمت.

– وأعطيتك وما صنت.

هوى بالكرباج صارخاً مولولاً.

– ما وراءك غير السقوط.. وغير الألم.

وغاص لسان الكرباج في الجلد، تمزق الثوب وانشق اللحم وسال الدم.. وتكومت على نفسها.

– انهضي واستديري.

– مولاي.. ارحم ضعفي.

– انهضي فما رحمت أحداً.

وتحاملت.. وخيط الدم يتخثر، ومزقة الثوب التصقت وبان الكتف عارياً. مد يده، مسك الثوب من مكان القطع، وأتى عليه.. وتعرت، وبدأ الجسد مبهراً. ولاح التكوين آية في الجمال.. صدمه خيط الدم، والزرقة المدممة.. نقل بصره إلى الردف وهوى بالكرباج.. تحملت الضربة، وخرجت الآهة من صدرها مسحوقة ومهروسة إلى ذرات لا حد لها من الألم، كتمت الألم الهائل، ظل الكرباج يرتفع ويهوي.. وقفت عيناها وتصلبتا، وتعب ذراعه وهمد، انطرح على المقعد لاهثا.. بحث عن الحاجب، فوجده مكوماً على نفسه يرتجف.. حدق فيها بغل.. كانت قد تكومت، ولملمت أشلاءها وسترت عورتها، وبقيت عيناها مفتوحتين على اتساعهما.. لمح بياض العين دماً، وكان بحيرة من فضة، وبؤبؤ العين جامداً وثابتاً، وكان رافضاً وحانياً.. ونفرت الرموش.. صلبة وشائكة..

وكانت الدغل والخميلة.. خال نظرها صفعة مصمية.. فصرخ لاصقا الحاجب ممتثلاً وراجفاً، وراكعاً.

– خذوها وألقوها بالسجن..

مال عليها الحاجب وسترها بملاءة، أسندت جزعها على كتف الرجل، وبان عليها الإعياء شديداً، وقبل أن تغيب على ناظره استدارت إليه وتمتمت.

– ستموت بي.. وسأبقى أنا.

– 15 –

على قدر اتساع المكان ضاق في عينيه، شاهد الصحراء تترامى أطرافها وتلتقي بالأفق.. فأدرك أن الالتقاء ممكن وإن كان صعباً. وأن التحول طبيعة الأشياء وإن لم تلحظه العين، وأن الوقت سيأتي وإن طال ليزيح العتمة ويداوي اللطمة. حدَّث نفسه وهو يرنو إلى البعيد بأن منابع النهر ستصب في المجرى الطويل، ولن تضيع المياه في تفريعات مسطحة وفاشلة، وأن الطمي سيحمل الخير، وأنها... ستبذر الحب وتجمع الحصاد.

وقع بصره على الجبل، فوجده شيخاً وقوراً أحكم حوله عباءة صمته. ود لو صعد إلى الشيخ لكنه ارتكز على حجر واستسلم لهياج نفس.. مسك عصا ونكش بها الرمال، قبض بعض الحصى ورماه.

فتناثرت ظلالاً باهتة .. خط بالعصا على الرمل وجهاً وعيناً وأنفاً وفماً .. أحاط الرسم بدائرة عريضة.. تقافزت من حوله ظباء المكان.. سحرته العين واهتز قلبه.. مد يده، فجاءه ظبي صغير وديع تمسح به وهش له.. لاح له هدب العين خيطاً من شجر السوسن؛ فأحاطه واستكان الظبي في حضنه.

(ها أنت تطوف وتدور، والأرض تقصف بها الرياح.. وهي لا تزال صالحة للبذار.. تبسط الأرض نفسها لها، فكم اشتاقت إلى الثمر، وكم آلمها الجفاف.. أحكموا القبضة، ولكن الفيض لا يسجن.. حب الفيض عندي اكتشاف وميلاد؛ فلماذا حين أحببتك يرسو المجداف، وتنكفئ القلاع؟)

طالته النشوة فنكَّس رأسه ولم يطاوعه قلبه. ظل قلبه توَّاقاً، وخافقاً، تمسحت به الظباء. فسبقه الوهج إلى العين، والدفء إلى الصدر. أمسك رأس ظبي بين يديه.. رأى الوجه كله، وتوقف عند العين.

(عين المها عين حبيبي.. تشع منك السعادة.. وأنا.. وأنا الرامح وراءها.. ويعيقني عن السفر حجاب من الحس.. وأخذني الطريق.. ونسيتك في الطريق.. وهآنذا عائد إليك.. وأنا أعلم أن الوصول إليك مجاهدة. فاللحظ فاتك، وأنت على العرش ملكة.. وكم أخشى على المحبة من عواصف العشق).

سقطت من عينه دمعة فأجفل الظبي ونفر.

(من يدفع ضريبة الوصول والكشف؟.. فالعود تذكية النار. خاضت جاريتي التجربة.. عرفت طعم المقاومة.. وأدركت أن المعدن الأصيل تصقله النار.. أيمكن أن تتقدم، وتقطف ثمر المجاهدة وتطأ في خطوها الأشواك)..

أثارت حوافر الظباء الغبار، وعافرت نبتة صبار جفاف الرمل.. واهتزت النخلة فتساقطت حباها، نقرت العصافير الثمار وزاحمتهم حمامة.. أطل الفأر من شق في جزع النخلة ومد رأسه، ثم اختفى.. علت أصوات، وخفقت أجنحة، وتسرَّب إلى نفسه وجل.

(إلهي.. ما أصغيت إلى صوت حيوان، أو طير، أو حفيف شجر. أو خرير ما.. أو ترنم طير.. أو دوي ريح.. إلا ودلت على الكمال.. هب لي اللهم وقار الطمأنينة وفضل القرب منك)

(إلهي عرِّفني عيوب نفسي لأتنزه عنها. أبتهل إليك خاضعاً أن تغسلني منها. وأذقني طعم محبتك.. وأحفظها اللهم وأعنها.. واغمر القلب بالضياء.. وساعدنا فأنت الغالب).

تناهى إلى سمعه صوت المرأة؛ فأرهف سمعه، كان الكلام الساقط من أعلى الجبل قوياً وصارخاً، (يا من أنت على نفوس الجبارين..) خطف عصاه ومضى يصعد.. شده منظرها.. وأرعبه لهاؤها.. دنا منها فأشاحت عنه، لمسها فنفرت، وقع بصره في عينيها، فانكسر في عينه الوميض.. زامت وهي تنشج، ثم قالت:

– إذا اعتللت فلا تجعل علتك إلى مخلوق مثلك واطلب دواءك ممن ابتلاك.

– لا تنهريني! وخذي بيدي..

اختلط في عينها الأسف والإشفاق.

– لم يحن الوقت.

– أيطول؟

– لا تجعل حبك مرساة للراحة..

– ليس في الحب راحة.

– لا تقف عند الاكتشاف واستمر..

– هو العذاب.. وأنت تعرفين!

– فلتحترق مجاهدة وعذاباً حتى تصفو..

ولملمت المرأة ثوبها، وأحنت رأسها وعادت كما كانت كومة شعثاء من الشعر ولزمت الصمت، طغى الصمت فأحس بدبيب النبض، قال ملتمساً في خفوت خشية أن يؤذي المرأة.

– ألا تزيديني يا أخت..

رفعت رأسها على مهل وقالت:

– ليس قبل أن تذهب إليها..

– أو عرفت..؟

عادت إلى وضعها السابق وهي تتمتم في أسى:

– حالك لا تغيب.

– 16 –

– أتبكين؟

– إنني أزجره فيستعصي عليَّ.

– لقد أثر الدمع في خدك.

– وهل يحمل غير الألم؟

– وهم لا يفهمون ذلك ولا يدركونه!

– أنقذهم.. ثم باعوني.

– وباعوني أيضاً.

– ألا تهتم لذلك!

– لا.. ولكنهم سيدركون.

– فرشت نفسي لهم.. وأعطيت.. وكانت المجاعة شديدة، ولكنني تحديت السيد، فتحت الأبواب، ونثرت الغلال.. و..

– ولكنك نسيت ما هو أهم؟

– ليس هناك أهم من أن تسمح دمعة محزون.. وتدفئ قلباً بارداً..

– لقد أدفأت المعدة ولم تصلي إلى القلب.. ليس بالطعام وحده يتحقق الدفء.

– كانت المجاعة وحشاً، أنشبت الأظافر والمخالب، وكانوا يحتاجون إلينا..

– ضاعت أنفسهم منهم فهانوا على غيرهم.. تركوا حقوقهم.. فماذا تنتظرين؟

– تشغلنا الآن أمور الدنيا..

– رأيت في العودة إليهم خيراً، وهم يحتاجون الفيض، وفيض الله يا جارية يغمر الكون كله، وقريب من القلب.. وإذا تعرَّف القلب وصل..

– الوصول إليهم مجاهدة.

– لا وصول بلا مجاهدة.. تذكَّري ذلك دوماً..

– ولكنني أعطيتهم، وجاهدت في سبيلهم..

– كان العطاء من قصر السيد..

– ولكنني فتحت القصر كله لهم، وبوؤت من الغنيمة بالغضب منه وبالتجاهل منهم..

– إنهم يحتاجون للحب، وكلنا نحتاجه.

– وأعطيته..

– لا يكفي أن تفتحي الأبواب.

– لقد فتحت قلبي.

– كان الحاجز سميكاً.. فلم يشعروا بك..

– كسرت الحاجز.

– مالك لا تدركين أن العطاء عطاء الله، وأن الاستئثار به ذنب كبير..

– لا تحتد.. فلقد خاطرت بنفسي في سبيلهم، والسيد لا يغفر لي ذلك، وأنت تعلم..

– لقد أدركوا بعض أن أفاقوا، أن العطاء صدقة.

– وحين أفاقوا نسوا..

– المال مالهم.. ألا تدركين أثر ذلك عليهم..؟

– لقد قدمت ما في وسعي.

– إن في وسعك الكثير..

– وهم يبغضونه.. ويكرهون من حوله.

– ألا يحبونني؟

– هي العدوى بالمجاورة.. فمتى تعودين إليهم؟؟

– إن في العودة إليهم، والاختلاط بهم، حياة جديدة..

– كم أتعذب.

– لست وحدك.

– أتتعذب.

– بنفس ما تتعذبين به.

– لقد قدهم وهدمت بهم الأبواب والحواجز.

– يجب ألا نغضب إذا لحنا نصلاً في يد الصديق..

– لم يعد صديقاً؟

– بل نغفر له.. فلا بد أنه يرى ما لم نره، فلا تحزني.

– وإن الحزن يغيم في قلبي.

– وآن للغيمة أن تنسكب.. فلا تبالي فهم يحتاجون إليك. انهضي ولا تخفي بالأشواك أخرجي منهم الحقيقة المطمورة واحرسيها، وداومي على اليقظة والسهر، ومقاومة النفس.

– لم أعد في نظرهم سوى غانية يختصها السيد له..

– أتعودين للبكاء.. ادخري الدمع لأيام قادمة.. فمن يدري ما تجود به الأيام؟

– إن عيني تدخر بجوار منه..

– إني أقرأه وهو يتحدر على خديك.. ويعكس في رقرقة ما بداخلك..

– أكاد أموت من ألم الشوق.. وعذري أنني أحاول، لعل شيئاً يتحقق، ولعلني أرسو يوماً على الميناء، وأقتنص الشوق، وأكتتز في صدري الحقيقة.. ولعلهم يوماً يدركون أن جزاء الحب حب..

– هي ضريبة من يعطي، فاكسري حدة النفس وانشدي رضاه؛ فالرضى لا يتجزأ..

- 17 -

حبسني في حجرة نائية عن القصر، وأغلق الباب. يداه هوتا على مقبض الباب بوحشية، لم تغثني الرعشة في الأصابع واختلاجة الذراع، طفت بالمكان.. أحسست بسجني، فأدركت كم يتعذب المسجون؟ وكم تشتاق النفس وتتعذب للخروج من الإسار!.. ثمة فتحة دقيقة في أعلى الجدار الأملس. يشع من الحجرة برد وتنشع منها الرطوبة. أصوات الألم، وانسحاق الآهات يلاحقني.. طالني ما طال غيري فعلام أبقى؟ أيمكن أن يأخذني إلى الدهليز والجب فأرمى فيه وأموت في برودة المكان، وبصحبة الثعابين؟.. أيمكن أن يصل إليَّ كما وصل إلى الشاطئ وأنقذني..؟ الزمان لم يعد الزمان؟ والناس لم يعودوا أناساً فمتى تقهرين الخوف في نفسك؟.. داومي النظر إلى الفتحة، فمنها يتسلل النور ويغزل الخيوط بينك وبين الكون كله.. ما عدت أطيق الرجفة، وأنا عارية إلا من ملاءة الحاجب.. أكان يجب أن تمري بالتجربة لتدركي أن العري في الداخل أقسى على النفس من عري الخارج.

رغم أن كثيرين يموتون به، لكن قلبي يزغرد بالفرح.. غريب في مأتم الجسد أن ينتشي القلب.. ويسترد الجسد، وخيوط النور المبثوثة تحمل الحب والبشارة.. صادقيني يا عين الشمس وصاحبيني يا نجوى القمر، ووشوشيني يا نجوم الليل.. واقتربي مني يا هوام المكان، حتى أحس بالفرحة تغمرني.. أفي السجن انفساح؟ وفي الألم بشارة، وفي التحديد تكوين جديد؟.. الأشجار العالية كمئذنة العارف بالله تلوح من بعيد.

تهتز، وترقص الأوراق، وتحتفي بالنور، تلملم الشجرة أغصانها، تحرس ما كنزته بالنهار لتستهدف به الليل.. أتبوح لي الأسحار بالسر، فمن يدري؛ فقد ترتفع النفوس وتصيبها عدوى الأشجار العالية.

– 18 –

ودارت في المكان الكئوس، وكانت كأسي مترعة حتى الحافة، والحباب عالياً وبراقاً، وبدأ الصحاب في عيني نتفاً من ملامح مجهولة، غاب عنهم بريق الزمان الذي تعودته.. اصطفوا وتمايلوا؛ فكانوا كصف من الأشجار هبت عليهم ريح عفية فكادوا ينقصفون، أسبلوا العيون وتراخت اللحى، ووقف الشيخ في الوسط، ولهثت الحلقة حوله بالأذكار، وهو في الوسط مصلوب في عيون ترقرقت أحداقها).

لزم مكانه. فضَّل أن يظل قابعاً، ولا يشارك في الذكر.. خرق سمعه الدق فتأوه، وتغضن وجهه. رفع رجل شارة حمراء فنهض ونكسها.. صرخ في حدة.

– ليس سوى الأخضر..

وقع بصر الشيخ عليه، وظل يداوم التسبيح، علا صوت واحد منهم.

– الليلة للأخضر..

حدَّث نفسه بأن الأخضر جزء منها، وأشار عليها ويجب أن يسود حتى في أشد الأمور خصوصية.

تمايل المنشد وغنى.

صغير هواك عذبني .. فكيف به إذا احتكما

وأنت جمعت من قلبي .. هوى قد كان مشتركاً

أما ترثى لمكتئب ... إذا ضحك الخلي بكى

اجتاحه شعور بالضيق، وانثالث نفسه طافية كحباب الكأس، أخرج مسبحته، وتقاطرت حباتها في رنين موقع.. صرخ واحد من الذاكرين ورغوته بين الأشداق..

– صغير هواك عذبني..

توالت الخبطات في ترنيمة موقعة. شهقت من الخلف امرأة وصاحت.

– كيف به إذا احتكما..

واصل المنشد إنشاده، فأسرع الذاكرون، وطغى الذهول، طاف خادمهم يجمع الكئوس، وجسمه مع الإيقاع يهتز، لمحه الخادم فبان له ساهماً وحزيناً، رفع رأسه وقال:

– أفق قد أفاق العاشقون.

التقت عين الشيخ به فحدجه بقوة وواصل التسبيح، غام في عينه المكان، وعلا فوق الرءوس، أتاه الخادم بكأس القرفة الممزوجة بالزنجبيل فعبه دفعة واحدة. كان الشراب حارقاً ولاسعاً. وانعقدت فوق الرءوس غيمة مظللة. لاح له القصر، وهاله شرخ بطوله يتولى ويتسع.. وسرعان ما هدم.. أطل من الغبار وجه معفر، تملاه، واندهش. وكانت بسمة خفيفة تبدو على استحياء وحزن ثقيل يكبس على الوجه.. أسند ظهره إلى الجدار وكف عن اللهاث، استرخت أنفاسه في بطء وضعف.

انقشعت الغيمة وبقي هو مذهولاً. داهمة القلق فارتعب قلبه. رفع رأسه ونظر إليهم.. فوجده يحدِّق بقوة. صمت الذاكرون وخيَّم الصمت. خال الصمت يتمدد فوق الصدور، ويزاحم الأنفاس، لاصقه الشيخ وحادثه.

– أقيك أنت مرتع الهم.

رمقه وصمت.

– هل من يعرف يزداد همه؟

– بل يزول الهم منه.

– لكنك منذ أن بدأنا الذكر وأنت ذاهل عنا. أفضلت الانفراد بنفسك أم تراك تحس بوحشة.

– يا شيخي.. من يعرف لا يستوحش.

– إذن ففيم الحزن.

– بل هو السرور.. لقد تجلت وجهاً مبسوطاً في الغيمة ففرح القلب.

– أهو الشوق؟

– وهل تغيب حتى أشتاق؟

– ولكنك في الشوق عجب.

– وما وجه العجب يا شيخي؟

– لقد خلطت بين الشوقين.

– أليس في الامتزاج سمو؟

ابتسم الشيخ وجاس بيده في لحيته، وبدا مهموماً..

– إنه السكر بخمرين.. أترى يستقيم الوصال؟

– إني أراهما – يا شيخي – لذتين تلتقيان.

نظر الشيخ إلى المنشد، وهو لا يزال يحتسي كأسه، ويجفف عرقه..

– ذكرنا ببيت الوصال.. فو الله لقد اختلط الأمر.

وضع المنشد الكأس، وكبس عمامته، أسقط الشارة الخضراء، ورفع كفه، لاصقت الكف الوجه، وتدلَّت فتحة الكم. الذراع أبيض مكتنز.. دهش الشيخ حين رأى الذراع وتمتم في صوت لا يبين.

– كيف لزاهد مثل هذا الذراع؟

تنحنح المنشد وتغنى.. "لم أذق طعم وصلك حتى زال عني محبتي للأنام".

وجَّه الشيخ حديثه للمنشد:

– كيف... فقد أتيت بالمطلوب.

ثم تفرس في وجهه وقال:

– لا يستقيم الزهد والاكتناز.

ضحك المنشد، ومال يحادث الصحب في خفوت.. توجه الشيخ بالسؤال:

– أرأيت كيف يكون الوصال؟

– المحبة موصولة..

– لا أراها كذلك؟

– الطريق إلى المحبة الكلية مفروش بمحبات جزئية.

- أتبيع الأعلى بالأدنى؟

- ومن قال أن من يصل إلى الأعلى ينسى الأدنى؟

- هو التشتت فلا تعاند.

- بل قل هو الامتزاج..

ثم نهض في عنف وواجه الشيخ.

- فيم كل ذلك؟

نكَّس الشيخ رأسه وقال:

- حالك لا تغيب عنا.

هرول إلى الخارج وتركهم.. خلَّف دهشة على الوجوه ووجعاً في قلب الشيخ.. سمعوا صوته في الخارج يتردد، والهلع يقطر منه:

- يا غيَّاث المستغيثين أغثني.

- 19 -

نزلاً متخفيين، لمست أقدامهما الدرج بحذر وانحنيا يساراً، مالا إلى الفسقية واتجها صوب الممر الضيق، خفتت الأضواء، وانطفأت المسارج، استترا في جذع شجرة ضخمة، وتسمعا.. الحجرة النائية قريبة

منهما، وفتات كلام وصلهما متقطعا.. صحبه نشيج وتأوه.. ضغط كل منهما يد الآخر.. نطقا في صوت واحد:

– أتسمع!

أمال أحدهما رأسه وتلصص.

– كدأبها كل ليلة..

رفع الآخر رأسه إلى السماء، وكانت مرصعة بالنجوم.. خُيِّل إليه أن نجوم الليل تقترب من الأرض حتى تكاد تلمسها..

– هي الآن تطل من الفتحة تناجي السماء.

– ما أراها إلا مظلومة..

– أنستطيع أن نحادثها الليلة.

– إني سمعت في جناح السيد حركة، وأخشى أن ينزل.

– كان بودي أن أنقل إليها حزن الناس في القصر..

– هي تعلم أننا نتألم لها..

– كان كالوحش لا يرحم..

همس لصاحبه في حذر:

– قلنا لها الطاعة لمثلها أمر.

احتد صاحبه وقال بصوت مكتوم.

- تحمَّلت مالا يقدر عليه أحد.

- وفي الرفض الموت.. وها أنت ترى.

عاود الدمدمة المجروشة تحت كزة الأسنان.

- إننا في حاجة إلى من يقول لا.

- وماذا بعد؟.. فها هي مرمية في محبسها مهجورة.

- أتقول مهجورة!

- بم تسمي وضعها الآن؟

- قد تكون مهجورة منه، لكنها تغمر القلوب، وتسكن النفوس.

- لو رأيت اليوم السوق؛ لرأيت عجباً..

- ماذا به؟

- كان السوق باهتاً ومضروباً، خيَّمت الكآبة على الوجوه، وبدا القلق في كل عين، والنظرة تحمل سؤالاً بلا جواب..

- أأدركوا ما حدث!

- لم نعد نراهم على الأقل في القصر.

– ربما لأن السيد لم يدعهم لسوء حالته.

– لا أظن؛ فالخبر انتشر والتوت القلوب.

شدَّ جزعه ورفع رأسه، واستدار تجاه الفتحة. ودَّ لو يرفع صوته ليصل إليها، في سهرها وتهجدها.. خشي على نفسه وعليها.. أتاه الإحساس بالضآلة؛ فهو ليس إلا خادماً.. افتقد نفسه، وضاعت منه أشياء كثيرة، لكنها حين جاءت أعطتهم الضائع، وهبتهم فيض نفسها. جمعتهم وحدثتهم.. خصصت لهم يوماً يأتنسون فيه، ويتسامرون، شبكت قلبهم بحبها فتعلقوا بها.. شعر الواحد منهم بنفسه، وأهله، وبالمكان ذاته؛ فضاقت الهوة في عيونهم، وأحسوا بالأمان.. زجر هاجساً في نفسه يفج بألا مفر من العودة.. وأن الهوة التي ضاقت ستعود إلى اتساعها.. فقال في أسى وحزن.

– أكان يجب أن تتركنا؟

– لعله خير.

– لقد ضاعت البسمة.. بشير الخير منها. أين هي حين كانت تقفز إلى الوجوه كلما تهادت خطواتها أمامنا.

– كانت المتعة لنا، وكانت الأمل.

نكَّس رأسه وخرج صوته ممطوطاً ومهموماً.

– وكانت الأنس لهم.

- ذكرتني بالأنس.. فأين هو؟

- من؟

- السيد

- أخبرني الحاجب همساً أنه يعاقر الخمر ليل نهار.

- لا ينساها، وعنده مئات الجواري.

- إن نساء البلد كلهن لا يغنين عنها.

- ولا الرجال! ..

- تصوَّرت الحاشية أنها تستطيع، فجمعت المغنية، والمطربين، وأصحاب الكدية.. والراقصات.. و.. و.. ولا فائدة.. وظل كما هو مهموماً لا ينساها.

- أتراه نادماً؟

- مثله لا يعرف الندم.. أنسيت ماذا فعل بها يوم المجاعة؟.

- تحمَّلت قسوته وشدته.

- أعاد التجار ما أخذوه من القصر فهدأ.

- لقد خافوا عليها.. إنهم لا يفرطون في كنزهم.

- هم لا يبغون سوى أن تظل راضية بلا ضجيج.

– حتى يثروا.

زمم شفتيه في غضب وقال:

– وحتى يظل الأنس معقوداً في القاعة الذهبية، ضغط صاحبه بيده على كتفه.. خشي أن ينفجر لكنه تأبى وخبط الأرض برجله.. جفل الآخر وارتعش، هدهده، ووضع كفه على فمه، نحى يده بقوة وزعق.

– كان الأولى بالولي وهو يتقدم الناس أن يذهب بهم إلى المتاجر.

– هيا بنا فإني أسمع حركة.

صلب عينه في السماء، ثم جال ببصره في المكان، وتوقف عند الحجرة النائية.

– لبكن عذره أنه بدأ بالرأس.

وضَّح لهما أن أقداماً تدب على الأرض، فانزويا.

– 20 –

زاحم الليل لهاثه وقلقه، مضى يدب في الممر الضيق وجسمه منطرح إلى الأمام. بدا عليه الترنح، حاول التماسك فلم يقو، فاستند على كتف الحاجب. وصلا إلى الحجرة النائية، تقدم الحاجب، ووقف السيد مستنداً على الحائط، والكرباج في يده تدلى ولامس الأرض..

أخرج الحاجب المفتاح وفتح الباب. صر الباب صريراً فهبت واقفة، واجهت الباب وظهرها إلى الحائط.. كان صدرها مائلاً وجذعها منضغطاً إلى الجدار. اتسعت حدقتا العين، رمقته يدخل ويحكم الرتاج فتقلص داخلها وعلا النبض في الصدر. أقام جزعه وخبط فخذه بالكرباج.

– أرأيت مصير العاصي؟.

أهابت بالقلب أن يهدأ وصمتت.

– تصورت أننا لا نقوى عليك.

دار حول نفسه وحزم وسطه بالكرباج.

– إلا إذا جمح خيالك وتخيَّلت أنك فوق..

أشار بيده إلى أعلى، واستدار للحاجب فلبد في ركن قصى وظلت هي في صمتها تتابعه.

– ها أنت مرمية في ركن مهجور، وعلى قيد خطوة منك قصر فخم مترع بالأنس والبهجة

شد ساقه فترنح، فلاصق الجدار.. فاقترب منها، وهمس:

– ولا يزال للخلصاء من القوم مكان للمتعة.

مطَّ بوزه وازداد اقترابه.

– ولا تزال أبوابه مفتوحة..!..

رمقته بركن عينيها، وكان صدرها على إمالته فاختارت أن تجلس فجلست.

صرخ فيها بحدة.

– ها أنت تتخلين عن أصول اللياقة.

نهرها لكنها داومت الجلوس.

– ألا تراجعين نفسك؟

نطقت في حسم:

– كان لابد من الفرار إليه.

نظر إلى الحاجب في دهشة وقال:

– الفرار.. ماذا تعنين؟.

انكمش الحاجب خائفاً وتمتم في رعدة:

– ليس من أحد.

– إذن ماذا تقصد؟

– مولاي يعلم أن الباب موصد والمفتاح معك.

بادرت في ترنم مؤثر:

- ليس دونه حجاب، ولا باب.

كتم غيظه ودمدم في سخرية:

- لابد أنه شيء خارق.

رفعت رأسها وقالت:

- ليت الغافل يعرف داءه.

- رماك عصيانك إلى السجن، وعداك السجن بسوء الأدب.

وحرَّك الكرباج، وتلوى في الفراغ.

- ألا تحسين بوحشة؟

جاءها الأمان، وحطت عليها الطمأنينة، فارتخت عضلات وجهها، أنار الوجه وانبسط.

- إذا أوحشني من الخلق.. أنسني بقربه يا مولاي.

ارتج المكان بضحكة صاخبة وساخرة.

- أرأيت كيف أثر فيك السجن، وكنت العاقلة الذكية؟

واجه الحاجب وقال متهكماً:

- الآن أدركت.. أما والله إنك لبغل.

مال ناحيتها واحتد.

– لا تحدثيني حديث من يلبسون الأسمال. فإني أرى عقلك قد ضل.

– آن الأوان أن أخلع عني ثوب الراحة.

– وتبيعين الجاه والسلطان.

اقترب منها حتى كاد يلاصقها.

– لا أظن.

لكز الحاجب ضاحكاً، فابتسم الحاجب وانشرح صدره فمولاه يضحك.. وقد لازمه الحزن والبكاء منذ أن أمر بسجنها، حدث نفسه بأن القلب أضاء، وأن السيد غفر.

– ما رأيت امرأة تفعل فعلك.

حاذاها، مد يده وشد الملاءة، أزاحها لكنها تشنت مذعورة.

– منذ أن تولد المرأة وعينها على الجاه والسلطان، وإذا لم يجئها سعت إليه.

نهضت بحذر شديد حين أقعى أمامها، رمقها الحاجب، ألمح لها بتمتماته وحركة يده أن الأمر يستدعي الرضى. قبض يده وكورها.. كان يريد أن يقول أن في العناد هلكة.

– لم نكتف بما رزقنا، ولم نأتمر بما كلفنا يا مولاي، والعين يجب أن تطلع إلى الخير كله.

– لا تطيِّري عقلي.

أحكمت حولها الملاءة ونقَّلت بصرها بينه وبين الحاجب.

– ليس فيما أقول خبل.

– بل هو الخبل.

حادث الحاجب محتداً وغاضباً.

– قل لها من يتأبى على الجاه والسلطنة؟

خطأ الحاجب من ركنه خطوة ووقف. حك جبهته، فتح فمه ولم يطبقه.. أرسلت بصرها فخرج من الطاقة يتملى.. خيِّل إليها أن أغصان الأشجار في حركة انسيابية، وأن أفراخاً صغيرة تختفي وتظهر، رجحت أن هنا عشاً، وأن الأب لم بعد بعد من رحلته، وأن لم يقدر لهم تناول الحب.. وذابت صوصوات العصافير وحواف الشجر في أعلى الأفق وضحك القمر.

– مولاي لا تغضب.

– إن غضبي منك كبير.

– كيف أسترزق من لا يرزق؟

– عدنا إلى مالا يجدي، ثم أنت تعلمين أن يدنا مبسوطة لك دوماً وألا شيء بعزيز عليك

– إنك الخير كله يا مولاي.

– قل لها.

أسرعت وقالت:

– إنما الخير أيها الحاجب من فضله.

وعاودت النظر، عبر الطاقة إلى بعيد، فاغتم السيد وهاج، والقمر يضحك.

– لقد فقدت مناصريك؛ فليأت من كسرت لهم الأرواب وفتحت لهم الخزائن أتحسبيني نسيت؟

– من يدري يا مولاي؟ ثم.. كيف للعبد أن يستنصر عبداً؟.

جذب الحاجب من طوقه بشدة وصاح.

– قل ماذا أفعل؟

– مولاي.. الصبر.

وتقدم الحاجب، كان كمن يتسلل خوفاً، وكان الإشفاق يطفح على وجهه.

– لا تزيديه سخطاً.

– تبسم الثغر، وأضاء، وعاد البصر السارح في الأفق إلى صاحبته ليضيء، واختلج في الصدر قلب ينبض ليدفئ، وغمر الجسد فرح طري معطر وابتل الفؤاد بقطر الحب. فخضلت العين بالدمع.

– وكيف أسخطه في رضى العبد؟

هوى بكرباجه عليها فزامت متأوهة.

– بل أنت الأمة والجارية، والمرأة المستباحة.

وسقطت الدمعة. ونبت في القلب غصن الفرح. وظل القمر يضحك.

– 21 –

قادته خطواته إلى النهر، لمحهم من بعيد يتناثرون في الأرض، انحنت أصلابهم، وارتفعت في الهواء فئوسهم تتساقط حبات العرق تحت أقدامهم. تجسموا في عينه شواهد للموتى فأدار وجهه للنهر. كان قلقاً ومغتماً، وكان النهر ينساب انسياب الثمل، تتراقص أمواجه في حذر واسترخاء، تنعكس على ضياء الشمس فيبدو فاتناً كنهر من النجوم. خيِّل إليه أنه يطلق الأنغام ويهتز متخطراً. شهق بعمق ثم زفر في استرخاء.

(الخير يعدي.. فلماذا يا نهر لا تمنح الناس عدواك؟ لم يأخذوا منك غير الماء، وتركوا فيك التخطر والكبرياء ونسوا فيك التغني والإحياء).

أمسك حجراً ورماه، فغاص وخلف دائرة من التموج، تتابعت واتسعت، كانت الحركة تسلم للأخرى.. حتى لامست الحركة الأخيرة في إعياء وكسل جرف الشاطئ.. افترت شفتاه عن بسمة حملت قدراً من الإنكار.

(لا يتحركون إلا الحركة الأخيرة.. إنها الفورة وسرعان ما تخلف هموداً وبياتاً).

كوَّم قبضته وسددها في الفراغ.

(مزقت صدر الجبال والتلال.. حفرت الوديان وعبرت السدود. حطمت العوائق.. وزرعت الورد حيثما سرت فلماذا يا نهر حين يتنفس منك الزهر تنسحب الأنفاس من الناس؟).

فرد ذراعيه، لهف نفساً طويلاً، أسند ظهره على جذع الشجرة.

(فيك يضحك البرعم، ويمتص النور، ويعاكس القانون في امتداده. يبدو البرعم أكثر انتشاء وفرحاً.. لقد ضحك حين تمرد، فلماذا يا نهر حين انسبت كالثمل سحبت منهم الضحك، وأبقيت البكاء؟.. ضننت بالتمرد وزرعت الموات في النفوس.. أم ترى يا نهر أن نفوسهم لم تطاول البرعم بعد؟).

أفاق فوجدهم بجانبه، وحبات العرق تعكس ضوء الشمس الغازية فتبدو على الوجوه كحباب الكأس.. حدَّق فيهم.

(يقطر الداخل عرقاً، يتقاطر على الوجه لامعاً وضيئاً هو حباب الكأس في ليل الحضرة.. فلماذا تمنح الكأس النشوى، ويخلف العرق الأيام ويحرق الأكباد).

كف عن التحديق.

– وجدناك صامتاً متأملاً، فتركناك.

قال أحدهم: – كأنك كنت تحادث النهر.

نطق آخر: – جئنا نلتمس منك البركة.

فرد يده وأشار إلى النهر.

– ليس من بعده بركة.

ضحكوا، وكأنما ظنوا أنه يتندر.

– لا أحد يجهل.

– إن قطعة منه تكفينا عمراً بأكمله.

– لو سألتم النهر لأجابكم.

– مزاجك اليوم معتدل.

– إن النهر يعرف منبعه.. ويعرف روافده.

خيِّل اليوم والصمت يلازمهم، أن ثمة أمراً يريد إلقاءه عليهم.

– ويغفر أنه يحمل حمله ليغمر به الكل.

تأنى ورمقهم واحداً واحداً.

– أرأيتم نهراً يستأثر بمائه؟.

أسرع واحد منهم وأجاب.

– ما رأينا.

تابعه آخر.. – ولا وصلنا من الأجداد.

وضع واحد من الجمع فأسه على الأرض وفرك يديه ثم قال بتأفف.

– لا أفهم..

ثم اقترب منه.. وكانت حبات مسبحته ترن في وقعها وتتابعها.

– ماذا تقصد؟

جرت حبات المسبحة بين أصابعه سريعة، متدفقة..

– لقد تاقت أنفسكم إلى قطعة ذهب.

– ومن لا تتوق نفسه للذهب.

انتصب وشدَّ جزعه.

– لكنك تجهل مثلاً أن الوالي شحاذ.

عاودهم الضحك، وحدسوا أنه اللحظة مبسوط وربما يتحدث باللسان.

– تضحكون وكأنما أقول نادرة.

التزموا الصمت وتعلقت أبصارهم به.

انحدر مع جرف الشاطئ ولامس المياه. ضرب الموج بكفه فانشق، عب الماء بكفيه، انثالت قطرت الماء خيوطاً موصولة براقة.

– انظروا.. انظروا إليه.. تأملوه وأحبوه فهو الباقي أشار إلى الأرض بوله وتابع.

– لن يكون لها وجود بدونه.

أحنى رأسه، وتمتم في أسى:

– لا تضحكوا إذن، فلأننا لم نأخذ من النهر الحركة عجزنا عن إدراك كيف يكون الوالي شحاذاً؟

تواجهوا دفعة واحدة وكأنما يحمل كل واحد منهم تساؤله هما.

- ماذا يقصد؟.

ضحك واحد منهم وقال ساخراً:

- إذن فهو ينافسنا.

سيطر على آخر اهتمام مباغت فسأل في عجب:

- كيف يتسول من رضعت جدران قصره بالذهب؟.

رد واحد بسرعة.

- أتعرفون من أين جاءه؟

التزموا الصمت وظلت عيونهم معلقة به.

- إن حبات الذهب هي دموعنا.

تلفتوا فيما بينهم، عقدت الدهشة ملامحهم فزمُّوا شفاههم وظلوا على صمتهم.

- أليست الدموع من الإيلام؟

طأطأوا رءوسهم، وبدت عيونهم قلقة حائرة.

- و.. ألم يأت الإيلام من القهر؟

- أما عن الإيلام والقهر فهما إرث.

– أعلمتم من أين جمع الذهب والياقوت ليرصع بها كرسيه وتاجه؟

– أنت تعلم، أننا لا نعلم.

– جمعها من أحداق اليتامى..

شكَّلت الدهشة وجوههم.. عاجله واحد قائلاً:

– ما علمنا امرأة تدمع ياقوتاً أو ذهباً.

– كان الياقوت بلون الدم.. لقد سقط الكثير منكم ملطخين بالدماء.. سقطوا إعياء وجوعاً وألماً وكمداً.. تذكروا.. إنه يريد كل شيء.

– لم يعد لنا شيء.

– إنه لو استطاع لملك النهر والهواء.

بانت في عين أحدهم فرحة محزونة فصرخ في حدة مدهوشة.

– كل الذهب ملكنا!..

رد عليه آخر، وحدقته مفتوحة على قدر اتساعها.

– والياقوت!!.

ابتسم، وكانت بسمته تحمل معنى ما يدمدمون به.. وتعكسه.

- والتاج المرصع.. وكرسي الحكم.

ضحك واحد باستفزاز، وبلا مبالاة.

- والقصر أيضاً.

- والسلطان نفسه.

رددوا في نفس واحد مرتعش.

- السلطان!!.

وسهمت الوجوه فجأة، وغطتهم سحابة معتمة تقطر ألماً مشوباً بالحذر. رفعوا فؤوسهم، واستسمحوه، واستداروا، ومضوا.. كان ينظر إليهم بشوق.. بدت عيناه وهي تنظر إليهم كأنما تنتظر، وكأنما الشقوق تنبعث منها شعاعات كالسهام، فلعل فأساً قوية حين تنهال على ذراتها تجدد الخصوبة، وتزرع البذرة، ولعل العرق حين يتجدد انسيابه يعطيها اللقاح.

نكس رأسه، وتوجه إلى النهر وذاب وجداً.

(طار العمر أيها النهر، أتراه لا يخلف سوى حفنة من الريش تبدو أثراً لجسد فني وانتهى، كآثرات الهموم التي لا تخلف سوى الآهات.. الآهات المغمورة بدخان النفس، والمرسومة على جدران البيوت.. أوقعتني بأنهر بين الحب والشرك.. وأدررت مني مخزون الألم.. وأفضت بعد الفيض كأسك الثملى لكن من يأتي بفارغ بال كبالك؛ فالدمع الذي

يصدر من قلبي جمده موجك؛ فمتى يفيض الفيضان ويغمر النفس والوجود؟. وحتى يصحو الناس من خمرة شوقك.. أيها النهر الآسر القاسي).

– 22 –

كتم السيد غضبه.. لا تفارقه لحظة أن أتى بهم وكسر الأبواب. وما فتئ جرحه ينز. زاده اتساعاً رؤيته لها، وهي توزع معه الثياب والكساء والطعام والشراب.. أكلته الغيرة وهو يرى اليد تمسح بالحنان آثار الجوع وآهات الألم.. لم يستطع أن يكتم خوفه وهو يرى آثار بريق يطل من العيون.. ولولا أن التجار أتوا لطق من الغضب. ساءه مرحه في القصر كأنه السيد، هذا الذي يلبس أسمالاً قذرة، ولم يغتسل منذ ولد.

تواكبت على القصر الجماعات، كأنما هو السبيل.. ضاع الجاه واختلط العبد بالسيد.. لقد قامت القيامة.. ظل يقرع الخدم كلما يراهم؛ فهو لا ينسى تقاطرهم وهم يخدمون.. يضعون ويحملون، وكأنما يتصرفون فيما يملكون.. ولما فرغت آخر طائفة من الجوعى وانصرفوا، أتاها هائجاً وغاضباً.. كظم غيظه حتى رأى فرحاً يتماوج على وجهها، ويهدر كموج النهر.. رأت فيه الغيظ المكظوم فبادرته قائلة:

– إلى من يذهبون إن لم يأتوا إليك.

أنفثأ غيظه، وقال بغلظة.

– القصر ليس مباحاً للعامة.

رمقته وهي تجاهد أن تستل غضبه.

– رغم أنك يا مولاي وصلت بالعامة.

رد ساخراً، وشفتاه ترتعشان.

– ولذلك كان حدبك عليهم واضحاً.

قالت بحذر:

– إن ما أخذوه حق لهم.

– أتسمين النهب حقاً؟.

– لا تنس يا مولاي أن ما نرتع فيه من ترف جاء منهم.

– أيأتي من وراء الرعاع خير؟.

اقتربت منه وابتسمت.

– أليست العامة هم...

قاطعها بعنف

–لا تصدعيني، فكفاني صداع اليوم.

وخرج ثائراً.. مال عليه واحد من الحاشية، وهمس:

– في مثل هذه الأحوال يا مولاي.. من الحكمة أن نحني الظهور لتمر العاصفة.

أشاح بوجهه ومضى.

– 23 –

– انظر.

– إنه هو.

– لقد لبس الخرقة ثانية.

– لقد خلعها بعد اقتحام القصر.

– غضب السيد وحملها له.

– أيخاف منه؟.

– ومن لا يخاف؟.

– أصحاب الحال.

– هم يتسترون بالخرقة والأسمال.

– ألا تراه مهموماً؟.

– كأنه يحمل آلام الناس.

– خيِّل إليه أن الناس سيتغيرون.

– كان يأمل أن يعود للعامة وزنها.

– كيف وهم المنهوكون في البحث عن لقمة!.

– ما سمعنا عن جائع وأتاه الوقت ليتأمل حاله.

– كان يراها البداية.

– أتراه ندم فلبس الخرقة من جديد؟

– كاد الناس ينسونه.

– أعاد يلبس الخرقة اتقاءً لغضب السيد.

– محتمل.

– ما أسرع ما ننسى.

– إن الأمر يذكِّرني بحكاية طريفة.

– إنني مصغ.

– حكاية بطلها ثعلب مكار.

– لا أراك تبغي التشبيه.

- انتظر.

- شوقتني فأسرع.

- كان الثعلب مهموماً.. يكثر من التلفت.

- أكان خائفاً؟.

- قابله صديق قديم له يهمه ما رأى في صاحبه.

- طبيعة الحيوان.

- سأله عن سر همه وكثرة تلفته.

***

(تلفت الثعلب يميناً وشمالاً.. جرى ودار حول المكان.

- اعذرني، فإني أشك أن العيون مبثوثة في كل مكان.

هال صاحبه أمره، فأخذه من يده ومضيا متسحبين وراء الأكمة.

- أراك ترتجف.. أأنت جائع؟

هز الثعلب رأسه، فطمأنه الصديق.

- لا تخجل فإني أدخر بعضاً من دجاجة صدتها أمس.

- ليس ما بي من الجوع.

– فمم يا صاحبي؟.

– لقد سمعت أمراً جللاً.

– قل.. ماذا سمعت.

جرى الثعلب، وتشمم المكان. وتعسسه.

– نحن في مخبأ لا يطولنا فيه أحد.

– وهل عينه تغيب؟.

– عم تتكلم؟.

مد أنفه، وعاود التشمم.

– السلطان.

– ألسنا في غابة.. فمن أين يأتي السلطان؟.

– إنه سلطان البلاد.. وليس سلطان الغابة.

ضحك صاحبه.. وهز ذيله.. بانت نواجذه قاطعة، على حين انبطح الثعلب على الأرض، ومد يديه وأرخى رأسه مهموماً.

– إن وراءك سراً فبح لي به.

– هو كذلك.

– فيم تنتظر؟.

– أمطمئن أنت؟.

– كل الاطمئنان.

– سمعت يا صديقي.

وعاود التلفت، وأتاه حذره، فجلس على مؤخرته وأطبق فمه.

– إن ما بك يوحي بسر مهول.

– وهذا ما يرعبني.

– قل فقد شوقتني.

– أمتأكد ألا أحد يرانا.

– لقد نفد صبري.

– سمعت أن السلطان يستولي على الحمير.

ضحك صاحبه واهتاج، وظل يخدش وجه الأرض بكفه.

– ومالنا والحمير.. ثم يا أخي.

واقترب منه، ولاصقه.. هز ذيله ولامسه.

– مالنا نحن والسلطان!.

– هي المشكلة.

– هل تتصور نفسك حماراً؟.

– أتراني حماراً؟.

– إذن ففيم خوفك؟.

– إنني أخاف من سكان البلاد.

– الناس!.

– نعم..

– يا صديقي.. إن كنت جائعاً فقل ولا تخجل..

– يا صاحبي لا تسخر؛ فالناس ما عادوا يفرِّقون بين الحمار والثعلب.

– وهذا ما تخشاه.

– إنه يميتني.

– اطمئن فالفارق بيننا لا تخطئه العين.

– أتعيش في هذا المكان.. أيها الصديق؟.

– إني جديد عليه.. لقد افترقنا من زمن.

- إذن فأنت لا تعرفهم.

- إنك تميت نفسك بنفسك.

- إنهم حين يضعون البردعة لا يعرفون الحمار من الثعلب.

- إذن نلبس ثوب الإنسان.

رفع الثعلب رأسه، زحفت عليه يقظة مفاجئة:

- فاتني ذلك.. لكن..

- لا تيأس؛ فأني الليلة أعد هجوماً على دار بالأطراف وليكن حصادنا الليلة، الثوب بدلاً من الدجاج.

- أتراه متاحاً.

- إني أراه كذلك.

- ألا ينكشف أمرنا.

- كيف ونحن نلبس ثيابهم.

ربت على كتفه حين رآه لا يزال مهموماً:

- لعلك لازلت تصدق أن كل من لبس الثوب إنساناً.

تسحبا في حذر، وبرز الأنفان يتشممان.. ومضيا يزمعان البحث).

***

ضحك الرجل من صاحبه وقال:

– كل شيء في هذا الزمان متوقع.

– إلا أن يرتدي الثعلب ثوب الإنسان.

– 24 –

تدلت المسبحة من عنقه وتأرجحت. أحكم الخطو ومشى وئبدا. كانت شعاعات الشمس الغاربة تحزنه وتهمه. كان قبل اللحظة ينتظر الليل ويعشق السهر ويتعجل الغروب، فالكأس الثملى تعلو بالحُباب، والأذكار بحر من العوم، كل يسبح حسب قدرته، وقامته.. كان الشعاع الأخير حين يودع المكان ليستقبل مكاناً آخر، يجعله يتبدل، ويعتريه فرح مبهم يغمره، ويخشى عليه أن يفيض، لكنه وهو يخترق الفناء الواسع والأسمال هترأت أو كادت، كانت نفسه تغص بالهم. لازمه الهم وزاحمه، منذ أن عشق؛ فالنهر أوقفه بين الحب والشرك.

لحظهم بركن عينه يتحلقون.. اقترب ووقف على رءوسهم، لحوه، فنهضوا وأوسعوا له مكاناً. قال أحدهم معتذراً.

– لا تؤاخذنا يا شيخ، فإننا نتسلى.

رمقه آخر، نادته عيناه أن يغفر فليس في اللهو ذنب.

- هل تتكرم وتجلس معنا.

اعترض واحد من الجمع وقال:

- كيف يضيِّع وقتاً في الأمور التافهة؟.

قعد القرفصاء، فبانت خروق الخرقة، ولاحت قطع اللحم في فخذه وساقه واكتنزت بالدم عروق القدم، وتماست حبات المسبحة بتراب الأرض.. صادت عينه عيونهم تتلصص عليه.. فابتسم وقال:

- من قال أن السيجة مضيعة للوقت؟

زغد واحد من الجمع المتحلق آخر وقال باهتمام.

- ألم أقل لك؟.

قبص على حبات المسبحة، أزال عنها التراب.. رأى الأقدام الحافية والأصابع النافرة والجلد المتشقق.. تنهد في عمق وأسرع يقول:

- السيجة رياضة الذهن.

بحلق فيه واحد منهم واستمر يلعب. استفسر اللاعب وهو لا يزال يلعب، ويداه تنقلان الأحجار من حفرة لحفرة..

- السيجة تنشيط للذهن يا مولانا.

خبط بيده على ظهره فارتخت المسبحة، وقال:

– إنك تضع الخطة، وتحرك الأحجار وتهاجم، وتدافع وتختار، ثم تنتصر.

علا صوت رفيع يحمل شماتة:

– أو ينهزم.. إنه لم يكسب دوراً واحداً.

أنهى اللاعب الدور، ونكَّس رأسه مبتسماً.

– الحظ يهجرني اليوم.

عرض واحد عليه اللعب، فوافق، كوَّم المسبحة. أعطاه لاعب أحجاراً حمراء فنحاها جانباً، بدت عليه الحدة وهو يزيح ذراعه.. قال:

– الأحجار السوداء.

– إن الأحمر يغلب.

– ليس دوماً.

– إن الحظ اليوم له.

– 25 –

ربت على كتف اللاعب، أضاءت وجهه بسمة.. خيِّل إليهم وهم يرونه مبتسماً أنهم يقدرون على فصل ابتسامته، فقد كانت كالموج

تتحرك دوائر، دوائر.. حتى لتظن العين من وله أن نبعا من الماء يترقرق في الوجه.. همس واحد لنفسه، حرص أن يقرب فمه من فتحة الجلباب، فقد كان "عبه" واسعاً.. همس وعيناه تتدحرجان عليه: "كيف لوجه له هذا البهاء يشاركنا لهونا؟".. أنحنى وكاد يدخل في جلبابه، وهو يتلفت إليه.. خشي أن يكون قد سمع. سحبه من فخذه وقال:

– أرأيت طيناً أحمر ينتج خضرة؟

– لكنه في المناورة ينجح.

قطع الأمر وقال في حسم:

– الأسود ابن الأرض، فهاته وتوكل.

استعاذ بالشيطان وسمى، وبدأ يضع أحجاره. رمقهم وهو يتابعون وضع الأحجار، أصابعه طويلة، والحجر بينها نتفة. كان اللاعب ضده حاذقاً وماهراً ومعروفاً بقدرته وغلبته. حادثهم وهو يضع الأحجار وينقلها:

– انظروا.. إنكم لو وضعتم الحجر الأسود في هذه الحفرة، ثم تركتم حفرة ثانية. وقفزتم حفرتين ووضعتم حجراً.. على اليمين وآخر على اليسار بعد ثلاث حفر.. ثم انتهزتم الفرصة، وثبتوا أحجاركم في الأركان حتى تبدو كالقلاع لكسبتم الدور.

– وباقي الأحجار.

ضحك في قوة، فارتج على اللاعب الضد.

- ادخروها للدفاع.

قهقه الجمع.. خرجت القهقهة لامعة صافية لها رنين المعدن.. حدّث نفسه بأنه لو لم تكن من نتيجة سوى القهقهة لكفى.. فمن يضحك في هذا الزمان؟؟ خبط الأسود وهو يضعه في حفرته؛ فكادت سدود الحفر حولها تتلاشى.. نظر إلى عين النار.. الحفرة التي تتوسط حفر السيجة وجدها ملتهبة، ووجه السيد يلوح بين هبالها؛ فكز أسنانه، ونقل الأسود وشال الأحمر.. ضج الجمع، واهتز اللاعب الحاذق.. حرَّك حجراً أسود من أحجار الدفاع فسد طريق الأحمر.. وقف اللاعب مندهشاً.. هوى بالأسود في حفرة الوسط فسقط الأحمر.. ذهل اللاعب الحاذق.. وذهل الجمع.. واجه منافسه وقال:

- ألا ترى الأسود جميلاً؟!

صفق الجمع وقالوا.

- ما كنا نتصور أنك تجيد اللعبة.

حطت عليه وداعة غمرت قلبه.

- إنكم إذا أحببتم الأسود، أحببتم الأرض السوداء.. أنه ابنها..

قال واحد من الجمع:

– ومن قال أننا لا نحب الأرض؟

رد آخر لا مبالياً.

– إنما هي لعبة.. وتأتي الأحجار كيفما اتفق.

شد جزعه، أخرج مسبحته، لاحت في عينه العيون محدقة..

– لا يكفي الحب، بل لابد من الدفاع. أرأيتم كيف أحببت حجري الأسود ودافعت عنه

همس واحد لآخر بجانبه:

– ماذا يقصد؟.

– لا أعرف.

نهض.. اختفت البسمة، وتغير الوجه.. بدا عليه الموج هادراً.

– لن ينال الأرض خيراً إن تركتم الجارية حبيسة لدى الوالي.

– الجارية!

– أليست هي الأرض؟.

– والله إنها لكذلك.

– أم أنكم نسيتم!.

– وكيف ننسى عطاءها يوم الهول.

دار برأسه، تلفت، مسحهم جميعاً بعينه، ثم واجههم وبريق من العين يطل.

– عطاؤها دائم ومتصل.. ألا تستحق الدفاع.. من سجنت بكم!. أم أنكم لا تجيدون الحركة ألا في لعب السيجة!.

تقاطرت في عيونهم الدهشة فتركهم ومضى.. شد الجمع وهم يشيعونه.. تعلقت أبصارهم به حتى غاب. حك اللاعب الحاذق ذقنه وقال:

– ما أظن الشيخ على خطأ.

تواجهوا، فأغضوا العيون وزموا الشفاه. جلسوا يمارسون اللعب من جديد. كان بريق العين لا يزال لاصقاً بالخيال.. تلاصقوا، لكن همًّا بدأ يطفوا على الوجوه ويضغط على القلوب.. تراخت الأذرع وهي ترمي بالأحجار.. تصارعوا على الأسود وبقي الأحمر منزوياً.. خشي كل ذراع أن يمتد إليه، فبدا منزوياً ومرتجفاً.. نظر اللاعب الحاذق إليهم وقال:

– ماذا جرى يا قوم؟

رد آخر وزمة واضحة ترتسم على الجبين:

– والله لا ندري ماذا حدث؟.

- كأنما يسحب بهجتنا الباقية!

- أينقصنا هم جديد؟.

قال اللاعب الحاذق متهكماً:

- لم أر يدا تمتد للأحمر.

- حتى السلوى فقدت بهجتها..

همس واحد لنفسه، وهو يرمق وجوههم وحيرتهم وهمهم.

- لقد ألقى الحجر الأسود في البركة ومضى.

بعثروا الأحجار، وهدموا السيجة، ونهضوا متثاقلين.. تواجهوا فانصب عليهم الخجل مرة واحدة كسحابة مترعة بالقطر.. فاجأهم واحد بقوله:

- أيقصد الجارية في القصر؟.

نطقوا جميعاً في صوت واحد.

- ومن غيرها؟.

- وما الحل؟.

بدت العبارة لغزاً يستعصى على الحل. مصمصوا شفاههم.. واحتواهم صمت ثقيل، قال اللاعب الحاذق:

– هو يريد أن يحمي الأرض، فيزداد طينها سواداً ويزداد سوادها خضرة.

كانت العبارة مخرجاً لهم من قلق شلهم؛ فلاح الارتياح رغم أن حذراً متوتراً لايزال عالقاً. أضحت الشمس الغاربة في عيونهم كعروس مخنوقة، فار على وجهها دم متخثر.

– كأن الشمس.. جارية القصر.

وتسربوا، واحدا وراء واحد.. وكان بريق العين لا يزال لاصقاً بخيالهم في وضوح.

لمحه الرجلان المستتران قادماً.. فتوقعا أمراً جللاً.

– الغضب يسبقه.

– لكنه تأخر كثيراً.

– بل أراه جاء في وقته.

جاءت قطة، فالتصقا خائفين.

– أتخاف من القطة؟.

– بل أخاف أن يكتشفونا.

– أتوافق على تلصصنا؟.

– أتحب أن يفوتك الأمر؟.

– لا.. فنحن نحبها.

– وهي أيضاً.

– لقد وقفت معنا حين غضب علينا.

– وناصرتنا على الحاشية.

– قل لي.. ألم يلحظوا غيابها؟

– من غاب عن القلب، غاب عن البصر.

– لشد ما يوجعني أنينها.

– هي الصمود بعينه.

– تخيلته أمس ثوراً جامحاً.

– خيِّل إليّ أن جلدي هو الذي يتهرأ من لسعات الكرباج.

– أضاعها بجنونه.

– إلى متى نتلصص؟.

– لا ترفع صوتك.. أترى شيئاً آخر؟.

– بودي أن أذيع الخبر.

– أترى فائدة؟

– قد يتحركون.

– لا تتوقع الخير في القصر.

– فعل الخبر ينتشر في الخارج.

– وهل في يدهم شيء؟.

– وكيف يسكتون؟.

– الأمر فوق الطاقة.

– إنها محاولة.

– وفيها قتلنا.

– أليس مقتولاً من يرى حبيبه يقتل؟.

– هيا بنا، ولنكن حذرين.

– لنبدأ بالخدم.

وغرقا في الظلام، وبدوا نقطتين باهتتين، وهما ينسحبان إلى الداخل.

- 26 -

طرق الباب.. كوَّم قبضته ودق الباب. أحكم شاله حول كتفه وانتظر. لملم ثوبه، وأخرج من جيبه المسبحة ومسح المكان بعينه. جاءته صوصوات العصافير فصفع الباب بحدة. صرَّ الخشب وانفتح فتواجها، التصق الحاجب بالجدار فاغرا. تداعكت يداه في ارتعاش.. نقل بصره بينهم جميعاً، وانزوى في ركن بعيد، أرهف أذنيه حتى لا يفوته شيء.

حين رأته انبسط الوجه وانفردت أساريره، حدثت نفسها بأن القلب وراء مجيئه، غمرها الفرح وكاد البوح يطفر.. لمحت شاله، وثوبه.. فلم يفتها رونقه. واتاها القلب، فتتابعت ضرباته.. حبكن غلالتها وانتظرت. حين وقعت عيناه عليه هاج، تسلل الغضب وعلا، تجهم الوجه وتغضن، مشى إلى الحاجب ولطمه.

- كيف جاء؟

اختزن الحاجب ألمه وهمهم.

- مولاي.. إنني ألازمك.

- لماذا فتحت له؟

- ومن أدراني أنه هو؟

اقترب من السيد وقال متهكماً.

– أترى أنه يستعصي عليّ؟

استدار السيد وأمر الحاجب.

– لابد أن تجلدوا الحارس.

ضحك حين بدا له السيد مهتاجاً.

– لم أدخل من بوابة القصر.

– إذن كيف جئت؟

لزم الصمت، وفرد شاله ولم يجب.

– كيف وصلنا هنا؟

– إذا سئلنا أظهرنا الجهل.

– ولكنني السيد، وكل شيء بأمري.

– لكن أمرنا ليس منك.

– ممن أذن؟

اقترب من الحاجب، وكانت عيناه تقدحان بالشرر.

– هي مؤامرة.

دار في المكان جامحاً، مشى إلى الحاجب، ثم مضى إلى الباب، رمقه وهو يقترب من الجارية. توقف عن الحركة فجأة، نقل بصره بينهما وقال:

- أهناك سيد آخر.

تقدَّم إلى الجارية، ومسبحته تتأرجح على صدره مسك يدها وقال:

- هي عوضنا عنكم.

- عوضكم! أتسخر؟

- لا.. ففيها يكمن الأمل.

- أي أمل؟

- الصلاح.

- الصلاح في أي شيء؟

- في كل شيء.

- ما أراكم إلا طامعين.

وقف أمامها مصلوباً وجامداً.. أهاجه بسمة ترفرف على وجهها فيضيئ.. وانفراجة شفتين جافتين تشيان بالبوح وعينان لامعتان تومضان

بالنشوة.. سكب بصره على الصدر فهاله التكوين مزموماً بالغلالة.. ضرب فخذه بشدة وصاح:

- أتريدونها لكم؟

- أفقدتموها الخصوبة.. عندما درتم حول أنفسكم.

زام ورفع السوط عالياً.. ترك يد الجارية، رفع رأسه، شد جزعه، رمى بذراعه في الهواء.. أغمض الحاجب عينيه.. لاح في العين طوداً شامخاً، أحس بألم ينخر الذراع ووجع كقطع المنشار يهضم عظامه. تراخت اليد، وتدلى السوط، لامس طرفه الأرض واستكان.

- تريدون العطاء!

- ومن لا يريده؟

- وما نوع العطاء؟

- الوجود.. والحياة.

- هي الوجود!

- نعم.

- والحياة!

- نعم.. لمن يدرك.

ضحك عالياً، واستغرقه الضحك.. قوَّس ظهره ومال إلى الأرض وهو يضحك.. تلفت برأسه نحوها وكاد يقعي أمامها ولازال يضحك.. اهتز جسده كله، وارتعش.. وزمَّ شفتيه، وكز أسنانه.. وضاع منه الضحك.. عاوده الغضب فصرخ في عنف.. تحسس الحاجب طريقه بحذر ولاصقه.. أرعبه أن شدقيه مفتوحان والزبد بسيل منهما.. تأكد أن اللوثة آتية.. وأن الزمام سيفلت.. وأن غيبة العقل قادمة.. همس إليه، والتودد على الملامح يرتعش.

– مولاي تماسك.. ولا تهتم.

ظلت عينا السيد مفتوحتين، والبؤبؤ متصلبا لا يتحرك كان الهلع يتمدد على الوجه، ويأكل العين ويخرج مع الأنفاس.. أخذته رجفه لازمته أيامه الأخيرة.. نقل الحاجب بصره بينهم.. كان الوجه الأشهب يحتضن بفتون وجه الجارية، ويتحسسها منعطفاً.. توجَّه إليه وتوسَّل.

– رفقاً بالسيد.. فكفاه طعناً.

– لقد طعن نفسه حين حبسها.

ومسك يدها؛ ففار الدم، ورقص القلب.

– ألم يكفه أنه جعلها عوداً جافاً ممصوصاً وكانت الري والظل.. اقترب الحاجب منها. سبق عينه التذلل.. انطباق الجفن حيرة، وتقلصات الأصابع قلق، الجبهة العابسة خوف. ذكَّرها أنه حماها، حين سترها بعد عري، وأنه أخذها في حضنه، وألقى عليها الغلالة.. وغطاها من نهش

العيون.. ذكرها أنه السيد، وأن القصر قصرها.. وأن الأنس معقود لها.. والأمر لا يعدو محنة، ستزول حتماً.. اقترب حتى كاد يهمس.

– قولي له أن يكف عن إذلال السيد.

التصقت بالحائط ونظرت إليه في حياء.

– من أنا يرحمك الله؟!

– من أنت؟ أتقولين من أنت؟

– نعم من أنا؟

احتارت وبدت الحجرة في عينه ضاغطة وضيقة، هرول بينهم.. ثم لبد أمامها.

– أنت من يجري على يديك الخير.. فقولي له أن يكف. اتجهت إلى الفتحة الضيقة، وصوبت بصرها بلا تحديد.. كانت حواف الأشجار تتماس مع الأفق، وكانت الغيمة تنعقد في عينيها، وسرعان ما أفرغت دمعاً غزيراً ومهيجاً.

– سترك الله أيها الحاجب، وكشف عنك الغمة.

أرسلت عينيها المخضلتين عبر الفتحة، وتناجت:

– اللهم اجبر كسري، وأقلني من من عثرتي، وأعني على الطريق.

تركها، ومضى إلى مولاه.. رأى الذراع ممتداً في الفراغ، والسوط معلقاً به، والجسد متصلباً جامداً. واللسان ممتداً في تجويف الفم ومدلى على الشفة السفلى.. ضغطت الأسنان عليه فأدمته.. رشح من الفم دما.. بكى الحاجب واحتضنه، حرك السيد شفتيه غصباً، خرجت الألفاظ مخلوطة بالدم.

- من يكلمني بلسان الملوك؟

سكب نظره عليه، ولم يقو على وأد شعور طارئ بالرأفة، لكنه أسرع في حدة.

- إنه العبد من يكلمك.

ضعف فبكى، أخذته نوبة نشيج.. همهم وهو يبكي.

- أنت دوماً.. وبل للعبيد مني.

سقط السوط وظل الذراع مرفوعاً.

- أخطأت حين تركتك. تصورتك لعبة يتلهى بها الناس فإذا بك شيطان.

- الشيطان أنت.. لقد آن الأوان.

- سأجز رقابكم.. أيها الحاجب.. سأفصل رقابكم عن أجسامكم.. أيها الحاجب.. ناد السياف.. أخبره أن الليلة ستملأ الكئوس

دماً.. أيها الحاجب بلغ السقاة أن يعيدوا الخمر إلى الدنان؛ فمشروب الليلة رائع.. أيها الـــ حا... جب...

وتثنى جذعه من طوله.. سقط، وكانت سقطته تحت أقدام الجارية.

مال عليه الحاجب وقلبه موجع. أحس أن النهاية وشيكة، وأن النزع الأخير في كل شيء يوجب الرحمة. رمقها فوجدها تبكي. رأى دمعها غريباً وهو من تذلل لها أن ترحمه.. رآها تنحني عليه فانبهم الأمر ولم يفهم. فاض من عينها دفء ظل مكتوم كرحيق الزهرة.. فاح وانتشر وتسلل.. وشيء كادوا يحسونه صهداً يسري مع الدم ويزاحم الأنفاس، وانهمر على المكان المفرح.. وجاس الضوء، مسحت بغلالتها دمه، ولسانه، وشدقه.. أعادت اللسان في الفم، وأطبقت الشفتين.. لم يصدق الحاجب ما رأى فشرع مندفعاً يقول:

– لا تتركيه. إنه يحتاج إليك.

احتضنته، أراحت رأسه على صدره وهدهدته.. وظل هو واقفاً يرمقها.. كان يبتسم لها.. وضوء يتلألأ في جبينها.. أدارت رأسها له وقالت:

– عجبت لمن هذا صنعه.. كيف يشتكي وعلام يبكي؟

ازدادت بسمته واتسعت، سدد بصره في قوة.. الوجه وجه قمر.. اطمأن.. زايله القلق حين انحنت، وجاءه الأمان حين قالت، وزغرد

قلبه حين سمت وارتفعت، أدرك أن في السمو العفة. وفي العلو الرحمة.. قال وهو لا يقوى على كتم فرحه:

- إنما يمتحن ذو البأس عند الشدة.

اقترب منه الحاجب وقال:

- لقد قسوت عليه.

وضع يده على كتفه وقال:

- لقد فقد محبتها ففقد محبة الناس.

- ومن يستطيع اكتساب المحبة في هذا الزمان.

- يا حاجب السيد.. تأتي المحبة للرجل حين تسكنه الحكمة ويقوده العقل.

- أعترف.. أن صوابه طاش هذه الأيام.

رفعت رأسها، ولا يزال الأسى في حضنها.. واجهت الحاجب في ألم.

- لقد صنعتموه وعليكم الوزر.

ارتجف الحاجب، وجف ريقه، زاغ بصره واحتار.

- ومن نحن حتى نصنع؟

جذب الحاجب وظل ممسكاً به.

– حين يتواضع الإنسان لمتكبر يذل نفسه في غير محل.

– لم يكن إلا وادعاً.

– كانت البداية.

– إنها المحنة فلا تعذبنا.

– لقد كبرت نفسه بغير حق.. وكبروا معه.. ثم هوى فتساقطوا معه.. تصوروها ربيعاً دائماً فباغتهم الخريف.. إنها أيها الحاجب: دورة الطبيعة.

نهضت، والداخل فائر ومشحون.. سكنت القلب الخميلة.. أورقت أغصانها لفيض النور، تلونت أوراقها بالمحبة.. خامرها شعور بأن القلب اتسع.. واتسع.. ووسع الناس جميعاً.. داعبت يدها حبات المسبحة وقالت:

– العلم بالمراد يغني عن المسألة.

تفرست في الحاجب، قرأت الباطن عارياً.

– يا حاجب السيد.. الائتناس بالناس نوع من الدنس..

دارت حول نفسها وهامت.. لاحقاها مبهورين .. اتجهت صوب الباب.. توقفت والعين تفيض بالدمع.. ثم أسرعت، وجرت.. وظلت تجري، صاح فيها وهي تتوارى.

– عودي.. يا جارية.. يا.. يا..

لكن الحاجب بشدة هرول وراءها.. والصوت العميق يناديها.

– عودي.. عودي يا جارية.. إننا لم نصنع شيئاً بعد.. عودي.. يا..

أنهض الحاجب سيده، ثم ولى مسرعاً وراءهما.

– 27 –

وتلوى خيط الغبار خلف الأقدام، فانغلقت العيون. كان اللهاث سريعاً والغبار يفرش الفراغ بالظلال والذرات. ولازالت عينه تتابعها.. كيف جاءتها القوة لترمح كالمهر الشقي؟.. غمرته البهجة حين وجدها قوية، تعافر، رغم ما أصابها، لاحت في عينه للتو وهي في مرمى النظر بعيدة، وغائمة.. شجرة ضارية بجذورها في الأرض، مورقة الأغصان، وارفة الظل، تشكلت خميلة عريشة، وخيمة، ظل.. رفع رأسه إلى السماء مولها.

(إلهي.. إن ألهتني الغفلة، ثقتي فيك كبيرة، أنت الملاذ، وإن هوت بنا العثرة).

تضرع إلى السماء، وكان الخشوع قطر ندى يبلل الصديان.

(إلهي.. هي نعمة منك.. ونحن بعض من النعمة، فأجمل الإرادة على قدر نعمتك).

مشى بيده على وجهه، دعك عينه، الرمش مخضل، ونثار الغبار يسكن جفنه.

(يا من لا تمل حلاوة ذكره ألسنة الخائفين، لا نخاف إلا منك، ولا نطمع إلا في رضاك، أسبلت المدامع الخاشعة، فارزقنا حلاوة النهاية، ولذة الإنس فأنت موضع الرجاء، حين يسرف الظلم، ويتمدد الخوف في النفوس).

رآه الناس حين رأوها، فتوجسوا خيفة، حين اخترقت المكان من وسطه عارية، والريح تجذب الغلالة الخفيفة وتطيرها، غاص قلبهم، وطفر الخوف في عيونهم، وقفوا في جمود، حطت عليهم بلاهة، وبلادة.

رموا ما بأيديهم فتناثرت الأقمشة، والثياب، واختلط الحبهان بالمستكة، والصندل بالعود.. طاشت حبات المستكة، وكفت المباخر عن الاحتراق.

وقف كبيرهم مندهشاً وقال:

– أرأيتم ما رأيت؟

رمى أحدهم بمبسم النارجيلة، ومد رأسه يتابع، عبرت وجهه دهشة هائلة.

– إنها الجارية.

مس تاجر جبينه وصرخ في حدة.

– إنه يتبعها.

زمجر كبيرهم

– لا أخاله يضايقها.

انفجر آخر كالبركان، مد يده إلى فتحة ثوبه وشقه.

– لقد سكتنا به كثيراً.

ولول رجل يؤانس صاحب المحل.

– لقد حشر نفسه في كل شيء.

أزاحت امرأة خمارها وغمزت.

– لم يبق إلا أن يضايق الجارية.

أعادت خمارها وقالت في غل.

- ألا نعجبه؟ لم يبق إلا أصحاب الخرق.. زمن!.

لكزها صبي المحل محتداً.

- أهذا وقته؟.

رأوا الحاجب يجري فأوقفوه.

- ما الخبر؟.

- تركت القصر وهربت.

تحلقوه فتخلَّص منهم وجرى.. سابقه رجل وأوقفه، شدد عليه الخناق فصرخ.

- لقد سجنها وضربها.

- من؟.

- السيد.

رمى الصبي بطاقته على الأرض وخبط بقدمه.

- أيعقل وهو من عاش بها؟

احتد الحاجب في نظرته، وخلص نفسه، ومضى مسرعاً، لمحوا من بعيد سقاة القصر، وبعض الخدم، سخر الصبي وزمجر.

- لمن تملأون الكئوس في غيبتها؟.

– أكان يجب أن يقسو؟.

– كانت المتعة والأمل.

صرخ أحدهم في وجه التاجر الكبير:

– قلت لك يوماً أن سيبيعها بعد أن يمتصها، وها أنت ترى

شرد التاجر ببصره وقال:

– الأمر يختلف.. علينا أن ندركها.

سخر الصبي، ودمدم في نفسه.

– تدركونها.. أم تدركون أنفسكم؟.

زعق تاجر وهو يهرول من داخل المحل.

– ألا تحمونها.. وجودها حياة لكم.

عاود الصبي سخريته.. وقال بصوت عال:

– ليس قبل أن تعثروا عليها..

تخطرت المرأة في مشيتها.. حدثت نفسها:

– إنها لا تعدو أن تكون امرأة.

وأسرع الرجال، واختنق المكان بالزحام.. انحشرت بينهم، سيطر عليها فضول كبير.. فأسرغت تسابقهم.. كانت الخطوات تسبق الأقدام، وثمة خيط مغبر يتلوى من بعيد.. حددوه وساروا على هديه، وأطلت الأقمشة والثياب. ولبدت الحبوب في الأجولة، وتدحرجت المباخر وأطلت الأرفف تتطلع، وتنتظر العودة.

- 28 -

تطاير الخبر وذاع، وانهمر الناس، وتلاقت الأزقة على درب الطريق المغبر، كانت الروافد كلها تصب فيه، والمنبع لا يمتلئ، والمجرى المحفور بطول الأرض يطلب المزيد، ويبغي الفيض. حدَّث نفسه وهو يلوح بمسبحته حين رأى الحشد ينثال (آن للمنبع أن يمتلئ ويفيض).

اختلط الرجال بالنساء وانحشرت الصبية ومدت رءوسها.. بصت العيون من المشربيات العتيقة.. امتدت يد وكسرت المشربية، وخرج صوت غاضب:

- الله على القوى.

شالت امرأة ولدها، وضعته على كتفها، ورمحت مع الرامحين.. أحاطته بيديها؛ فالزحام يفقد التوازن، من أين جاء الناس؟ وأين كانوا؟ حادثت ولدها وقالت:

– ارفع رأسك فقد تراها.

– من هي يا أمي؟.

– الجارية.

– لا أعرفها. أكانت تزورنا؟.

ضحكت الأم وأحاطته بشوق.

– إنها من تعطينا.. لولاها لهلكت يوم أن كنا لا نجد اللقمة.

– هي التي تعطينا الخبز؟.

– ومن غيرها؟.

– واللبن؟.

– وكل شيء.

– لكنها ما أطعمتنا اللحم.

قرصته في حنو وانحشرت وسط الجمع، لمحت مكاريا يشق الزحام.. العربة، والعصار والحمار، تطلعت إليه، فأشار لها، قفزت وجلست.

– ساقك القدر إلى الزحام.

– بل جئت طائعاً.. ولولا الزحام لكنت في المقدمة.

ارتفع صوت فتاة حاراً ودافئاً.. كانت تتغنى، فانضمت إليها فتيات أخريات.

رددن الكلمات في إيقاع منغم.. أخذ بعض الصبية يغنون في نغمة مقابلة.. شعر المكاري بلفحة انفعال تكتسحه، فهوى بعصاه على حماره.. نهق الحمار، وطرطرأ أذنيه.. ضحكت المرأة.

- حمارك يغني.

- لابد أنه مبسوط.

ناوشته المرأة وولدها يتأرجح في حجرها.

- لن تأخذ مني الأجرة!!.

- الأجرة أن نلحق بها.

تمتمت في حزن، وكأنما أحست بوحشة الفقد.

- أيمكن أن تعود؟

وموكب الزحام يصغي ويضحك، رغم أن خوفاً في القلوب قد حط، وهمًّا يدغدغ النفوس ويجرشها.. الرءوس مشرعة والأعناق ممطوطة، والأكتاف ملتصقة، والأذرع تعافر، والعيون معقودة عليها.. وقلق يرشح في الصدور ، والأنفاس مكتومة، والتعلق بأمل اللحاق بها يناوش القلوب. وانطلقت زغرودة مدوية؛ فانشق الزحام وتلألأت

العيون، انزاح بعض الهم – وتتابعت الزغاريد – وامتلأ الهواء بالنغم، لكنك إن دققت النظر لمست سحابة من الحزن تحاول أن تمتص الفرح وتذيب النغم.. اختلط الفرح بالحزن، والدمدمة بالصراخ؛ فالموقف لا يحتمل، والأمر يستعصي على العقول مرق في السماء وهج وضاء، فتعالت الصيحات، خرج صوت ناشف يعلو على الأصوات.

– إنه النور الذي يحرسها فلا تخافوا.

تواثب الغلمان وانحشروا. تضايق المكاري. ورفع عصاه، لم يبد من حماره سوى أذنيه.. طوَّق خصر المرأة ليحميها من السقوط.

– أكُلٌّ هذا الجمع نال خيرها؟.

أسندت ولدها، ودفعته في حجرها، وهللت.. نظر إليها فأدرك أنها كالآخرين أخرجت قلبها وعزفت عليه.

– من نالوا خيرها تركوها؟

شد ذراعها وقال:

– انظري.. كأن القبور أخرجت سكانها..

قهقه في سخرية، وأغاظه أن حماره اختفى بين الناس.

– أكل هؤلاء يعيشون بالبلد؟

نظر إلى حماره.. وأمسك عصاه ولوَّح بها في الفضاء.

– كيف له أن يرى المشهد؟

طلبت منه أن يكف.. فلا وقت للتهكم.

– خير لك أن تنقذ الحمار.

وضحكت، وهللت من جديد. وكانت الفتيات والصبية لا يزالون يوالون الغناء.. همس لنفسه في حيرة.

– رغم أننا في ضنك، إلا أننا نرمح وراءها.

زام؛ فعلا صوته.. حمل حين نطق مسحة أسى وخوف، فنفخ في توجس.

– من يدري فقد يأتي سيد آخر، ونظل كما نحن على الضنك.

وخيَّم الظلام، وخيَّم الصمت، ومرق في السماء وهج وضَّاء، فعادت الصيحات تتعالى.

– إنها تنادينا.

بدت في عيونهم من بعيد، حورية تجري ويقطر منها الماء كالنور، وشعرها الأسود المبلول يبدو بلون الحنطة، ونهداها البارزان كنهرين من اللبن المخزون ينتظران العصر. وارتفع صوت من المئذنة يقول: "والعصر إن الإنسان لفي خسر".

– 29 –

غامت عيناه، وأجهده العدو، خامره شك في الصوت الذي يعلو يسرد صفاته، ويعدد كراماته، تأذى وحدث نفسه بألا كرامة من إنسان وغيره مهان.

– 30 –

اعتلى الرجل نتوءًا وظل يحكي، كان شعره أشعث مغبراً، واللحية مهوشة وعيناه زائغتان، لوَّح بيده، فرد أصابعه، وقبضها، ظل يفردها ويقبضها.

وكان الفراغ من بين أصابعه المفتوحة يذوب.. وهبط المساء رويداً رويداً، غبَّش المكان، وتعذرت الرؤية، انتفضت المسارج والشموع واخترق النور الغبار الكثيف، وتميعت الرؤية، ولم يعد يرى الواحد منهم ما كان يراه، تجرأ الحشد جماعات.. جماعات..

وبقي حبل المسير وصولاً.. تزداد الروافد على شطيه وتتزاحم كالنيل والفروع والترع.. أخرج الرجل عصاه من بين تلافيف أسماله المتسخة والمتراكمة طبقة فوق طبقة، دلق عليها "الجاز" من زجاجة منبعجة سوداء، وأشعلها، دار بها في الفراغ، ولوَّح، تصاعد الدخان عالياً، دارت عيناه في محجريهما، وأطل منهم بريق مخيف.

- لا تخشوا عليها فهو معها.

يميل الجزع، وتميل الرأس، يرمقونه ويمضون.

- إني أعلم به منكم.

توقف البعض، وجذبهم الفضول.

- تعالوا أحدثكم عنه، إنه واحد منا.

وجدت أمامه جمعاً مختلطاً، رجالاً ونساء، وصبية، وفتيات.

- ما لكم تخافون.

شد رجل جسمه المحشور ونطق.

- وعلام نخاف.. إن لم نخف عليها.

حرَّك عصاه فازداد الوهج، وتشتت الدخان. ضحك بصوت عال، وغرق في ذهول ثم نطق فجأة.

- اطمئنوا.. ألا تعلمون أننا زرعنا في كل ركن من الأركان الأربعة واحداً منا.

همس واحد لآخر يلاصقه:

- إنه يتحدث عن الموتى.

رد عليه في تهكم وازدراء.

– إن كان كما يقول.. فإن في كل زاوية واحداً منهم. (لوَّح لهم بالعصا المشتعلة) إنهم يحرسونها فلا تخشوا.

زعق واحد منهم في وجهه وانسحب ماضياً.

– كيف تحكم فينا الموتى..؟

انفعل الرجل بشدة، استهول الأمر فشد شعره، وكاد يمزق خرقه.

– بل هو خير من الأحياء.

أشار إلى الرجل المنسحب، وهو يغوص في الجمع.

– ماذا فعلتم أنتم يا عجول؟.

رفع رأسه، كأنما يناطح الدخان المتصاعد، فرد ذراعه ورماه في وجوه الواقفين.. وأشار إلى بعيد، حيث خط الغبار، ونقطة البداية.

– ألم تروه هناك يتبعها؟

– وجدناهما يجربان فقلنا في الأمر شيء.

– هل كنتم تعلمون عنه شيئاً.

– لا..

– نعم..

أحنى رأسه وقال في تمهل.

– لقد أرسلوه ليحميها.. الأحياء الموتى أرسلوه، فاتبعوه..

حمل عصاه المشتعلة على كتفه، بحث عن ظله فلم يجده، فاهتز، لاح الأفق في عينه راكزاً بأطرافه، فضحك.. سكب الجاز على العصا فازدادت اشتعالاً. جذب رجلاً قريباً منه، خلعه خلعاً، وكاد الكتف ينخلع، أوقفه بجانبه. كانت مساحة النتوء ضيقة، ارتكز الرجل على ساق، وظلت الأخرى معلقة.. همزه بشدة، وأحاطه بذراعه الأخرى. وقفت الأنفاس، ولم يعد شيء يتحرك. رفع عصاه فألقت ظلال الأجسام على الأجسام.. التفت إلى الرجل وقال:

– انظر

أشار إلى السماء، وظل الواقف بجانبه حائراً.

– ألا ترى الوهاج هناك؟.

تلفت الرجل يميناً وشمالاً.. تقلصت عضلة الساق.. وبقيت ساقه تتأرجح في الفراغ.

– ألا تراه دافئاً ونيراً.

ارتعش الرجل وخاف، تمتم وحدَّث نفسه بأن أصحاب الحال مجانين لكنه استكتم تمتمته وقال.

- إني أراه.

تلفت الجمع حواليهم، وصمتوا.. كان الصمت ثقيلاً رغم الضجيج والصخب.

- اتركني فقد رأيته.

- إنه يتجه نحوه.

- إنه يتجه نحوه.. اتركني.

انتصب جذعه وشدد من ضغطه على الرجل.

- إنه يصب دفئه عليه.

سقطت صرخة الرجل على الرءوس، وواصلت سقطتها حتى الأقدام.

- إنه يصب دفئة عليه.. اتركني.

تركه فهرول الرجل وانحشر بينهم.. وجَّه حديثه إليهم.. بدا فجأة ذاهلاً وحنوناً.. مضى الآخر وسط الحشد يزمجر "إنه يصب دفئة عليه".

- لقد خصه الله به.

رمقهم واحداً واحداً.. لاحت السمات مرسومة غصباً فاحتد فيهم.

- لا تخدعوني بابتساماتكم.

رد عليه واحد من الجمع في ضيق.

- قل ماذا تريد.. فقد عطلتنا كثيراً.

- أقول لكم.. اتبعوه يخلصكم.

- نحن نتبعه.

- نحن نتبعها.

- إننا الذين نحدد من نتبع.

سخر واحد وقال

- فلنتبع أنفسنا.

أطفأ عصاه، فظهرت من بعيد ارتعاشات ضوء خافتة.

- إنكم تسيرون مع السائرين.

- ألا يكفي؟.

صاح في رجفة.

- حددوا مقصدكم تنجحون.

وتسحب الجمع.. ونزل إلى الأرض. وظل النتوء فارغاً.. ثم.. انحشر في الزحام.

- 31 -

رفع رأسه، ومط عنقه. أزاح الحجر الذي يتوسده، وارتفع كوعيه، وصلته ضجة الأصوات، الغناء، الصياح، التهلل، النداء، الزغاريد.. الله أكبر.. الجارية، الأذان.. ضيَّق عينه وصوَّب بصره إليهم.. رأى الرجال، النساء، الصغار، الصبية، المهووس، التاجر، الغني، الفقير، التابع، المتبوع.. دعك عينيه، ونفض عنه آثار النوم؛ فلقد أيقظته الضجة وانتهى الأمر.

جلس، وانتحى مكانه المعهود على أعلى درجة من درجات الجامع الصغير.. ظنها للتو فرصة للتسول، مد يديه. دعا للراحمين أمامه بطول البقاء. وظل ينتظر.. قبض كفيه.. خامره شك في الأمر؛ فالمشهد كيوم الحشر. (أترى القيامة قامت وأنا نائم؟) أراد أن ينهض لكنه ما لبث أن استلقى.. حاول أن ينام لكن الضجة أفاقته.. ظل مستقيماً يحدق ويحدث فيهم.

عقدت الدهشة بوجهه، واستنكر الأمر: (أمات السيد؟.. أو أن الحرب قامت؟..) دفس يده، وأخرج سيجارة، أشعلها، ولهف نفساً عميقاً.. (أحلت مجاعة ثانية بالبلد؟..) ابتسم في ازدراء.. وحمد الله على

وضعه (إني آكل.. طاعم.. حلت بالبلد مجاعة أو مشى فيها الخير).. ناداه واحد من الحشد الصاخب.. رمقه.. رمقهم وظل على حاله.. عاوده الهاجس بأن الأمر خطير.. لكنه حين رمى بعقب السيجارة رنت في أذنه أصوات مختلطة.. من البكاء والغناء، فحدس أن الأمر كله جنون.. جاءه واحد وشد يده، فاعترض، لكنه حين استدار استوقفه.

– ما الحكاية؟

– لقد هربت الجارية.

– أية جارية.. فالبلد تغص بهن؟

– جارية القصر.

– أمتأكد؟

– كما أراك.

– وما دخل الناس هؤلاء؟

– إنهم يجرون وراءها.

– ليمسكوها.

– ليلحقوا بها.

– ويعيدونها إلى القصر.

- بل ليحموها منه.

- لماذا؟.

- كأنك لا تحيا.

- وهؤلاء سيحموها.

- نعم

- كيف؟.

- وماذا تريد مني؟

- أن تأتي معنا.

- لماذا؟.

- لا تحيرني.

- أتحتاجون إلي؟

- لابد أن تشارك في البحث عنها.

- ولكنني متسول.. فقير.. لا أجد قوت يومي.. أتضمن لي العشاء؟

- لا وقت للمناكفة.

– لو جئت معكم.. أتضمنون لي أكلاً وسكناً.

– ماذا تتصور نفسك!.

– إذن.. ارجع، واصرخ مع الصارخين.

ورقد على ظهره.. وحدَّق في السماء.. راعه أنها تصوب سهامها إليه، وتمعن التحديق.. فأمعن التحديق، وأصر عليها، وتحسس وجهه المتغضن، وقدميه الحافيتين الخشنتين، وثوبه البالي الخلق.. ولحمه العاري.. وأذنه المثقوبة.. وعكازه المهشم.. وكسرة خبز ناشفة.. رفع بصره.. فشاهد المئذنة.. وراءها نجوم السماء تتلألأ هادئة وادعة وكأنما لا تصلها الضجة.. نزل ببصره.. باب الجامع.. المنبر.. الخطيب.. الجنة والنار.. الدعاء للسيد أن يجري على يديه الخير.. وينتصر على الكفرة.. ورأى.. ورأى، فأدار للعالم كله ظهره، وأخرج سيجارته وطفق يشعلها.

– 32 –

أجدبت الأرض، وتشققت، رمحت الفئران في الشقوق وحل القحط، وكاد الناس يموتون، ارتفعت الصيحات: الخبز، الماء. وارتجت في الأعالي السماء.. أنطرح الناس في كل طريق وزقاق.. تيبس القلب، وزاغت الأبصار، هرب الأخ من أخيه، أكلت القطة أولادها.. تدافعوا، انكفئوا، واختلطوا.. فيهم الحي، ونصف الحي، فيهم الميت ونصف الميت، نهشت المجاعة القلوب، فعميت الأبصار: الخبز– الماء.. وظل

السيد في قصره لا يبرحه.. مدلها ومترفا.. وحين أمات الجوع الناس نزلت إليهم.. تركت السيد والقصر، ونزلت إليهم، ونزع هو خرقته، ترك مسبحته وداوى الجراح باللمسة.. لكن اللمسة لا تشبع، والحنان لا يطفئ الظمأ، أدرك أنه إذا نطق بلفظ معوج قتله، فالوقت ليس أوان التوبة.. توجهت إلى الله وقلت.

(أنتم عصيتم الله في طاعة العبد، يا من بيده أمر الدنيا والدين.. ارزق عبادك الضالين.. ولا تأخذهم بعصيانهم فليس الوقت وقت الحساب).

صرخ في قوة، كوَّم مسبحته ورماها في جيبه، ولاحت الأشجار محروقة.. نفقت الدواب.. وجف الضرع.. وسقط الناس.. والتمس العفو.

هذا الذي يجري أمامكم يلتمس العفو.. (نلتمس العفو من الديوان.. الديوان جود كله.. نحن عشاقك الأطهار.. اهتزت أغصاننا وجذورنا في الوحل، فهيىء لنا القربى واصنع على يدينا رضاك) واتجه مندفعاً إلى القصر.

حطم الباب.. وفتحت له الأبواب.. أكلتم وشربتم.. أطعمتكم وكسوتكم.. ولكنكم في غيكم سادرون.. ظن أنكم ستنتصفون لكم.. فخاب أمله.. تركها وترككم، لبس الخرقة، وانعزل عنكم.. وجاءها منزوياً ومهموماً.. نحن الذين نداوي القلوب، وأنتم تجهلون قلبه. و.. و..

ونظر حوله وجد نفسه وحيداً، وعصاه لا تزال تتأرجح، غشيته نوبة، فشد شعره وصرخ.

– إني أراكم نسيتم!.

– 33 –

علق مسبحته في رقبته واستسلم. فرد شاله ونفضه تأرجحت على الصدر حبات المسبحة، كثمرات النبق، وقف دعك عينه، ومسح جبينه. أخرج منديلاً نظيفاً نشف به العرق أحس بنظرات الناس حوله تتلصص فأعاده إلى جيبه، (أيستكثرون علي منديلاً نظيفاً. أكتب أن أبتلى بالخرقة. فمتى يدركون أننا لسنا معلمين بها؟) داخلته الهمهمة فلم يلحظوا سوى تمتمة الشفاه. لكنهم وهم يتحوطونه لحظوه يقسر دمعة عن الانفلات، فأحاطوا به.. خبط رجل كفيه وقال:

– كيف لولي يعجز عن اللحاق بها؟.

نطق واحد بسرعة

– ولماذا وقفتم؟

– رأيناه وقف.. فوقفنا.

– أتتركون إذن؟.

– مثلما تركها.

– كان يستطيع لو صرخ صرخته أن يلحق بها.

علا صوت مشروخ

– لقد قفز النهر وحماها.. أيعقل أن يعجز عن الوصول إليها؟.

– لقد تركها تهان.. ولم يفعل شيئاً.

حدّق فيهم وصمت، كادت يد تمتد إليه.. تسابقت الأيدي.. صنعت حاجزاً.. أعاد الرجل يده حزيناً.. تمتم معتذراً!.

– ماذا جرى؟.. السماح يا شيخ.

رفع الرجل عصاه، بحث عن قارورة الجاز فلم يجدها، فتل لحيته وقال متأنياً.

– ألم أقل أنكم نسيتم؟.

ولولت امرأة شعثاء الشعر.. رفعت جلبابها فظهر ساقاها العجفاوان.. دفعت بولدها بين وركيها.. وصاحت.

– ونحن من تصورناه يحمي الحريم؟

همس واحد لآخر بجانبه.

– لقد أصابته الغمة.

– وهو قادر على دفعها.

– لقد دفع الكثير.

انحنى، بحث عنها تحت الأقدام.. عثر على القارورة سكبها على عصاه، وأشعل النيران.. تكشف المكان.. بحثوا عنه فلم يجدوه.. هاج فيهم وصرخ.

– يا قوم لا تلمزوا النفس وداووا جراحكم بأنفسهم.

– 34 –

ليس في العشق مهانة، بل ليس من مهانة أقسى من مهانة العاشق.. تساوى العاشق والمعشوق، وأضحى العشق غصناً طرياً، وحميلة غنَّاءً، وطائراً مغرداً، وبحراً ذاخراً، تظل العيون مفتوحة، والآذان مرهفة.. والقلوب تبحث علها تنجذب.. وأصابتني الحمى.. وتلوَّن الكون في عيني، وارتدى الرداء.. واستتر الجسد العاري بنور الوجد فسكنته الطمأنينة.

وانسكب النور فامتلأ النبع وفاض.. ترشني الضياء.. ويغسلني الوهج. ويفور من داخلي نهر الحب.. والمنبع الذي غاض يمتلئ.. يترقرق سنا وسناء يفور عارجاً إلى السماء.. بل إني أكاد ألمح السماء تنحني عليه في وداعه وحب.

ليس في العشق مهانة، ففي العشق الوجود، وفيه تنتفض الحياة وينكشف المستور. والقلب حين يكتوي بالنور ينصهر، يتألق معدنه، ويبقى للعاشق العناء، يسعى للاحتراق فمن لا يحترق قلبه على الإنسان؟.. كان قلبه معي عاشقاً ومحترقاً، أشعله في قلبي وأتت النار على قلبه كتم الآلام، عناء الفعل، وما باح.. فاحتفظ في داخله بسر البهجة وتركني أبحث، حطم الصنم.. فأماته في قلبي.. وأزاح الأثقال والأغلال، ودفعني على الطريق، فزماننا ممتلئ بالأغلال والأثقال والأصنام.. والناس وراءي على نفس الطريق كالسيل.. يغمرني إحساس طازج بأنني جزء من الكون الضخم اللا محدود.. وأحس أنني أذوب.. أضحى قطرة وسط هذا السيل الجارف المنهمر.. هذا الذي يتبدى كظاهرة كونية.. أذوب وأمتزج كذرة الهواء، كقطرة الماء، ويبقى لي تفردي.. نشوتي وعذاب عشقي.. والسيل جارف ومنهمر يكتسح المكان.. يفيض فتتحكم السدود.. يتراقص السيل في المجرى كالثمل.. يلمس الضفاف ويهدر بالموج. وينساب في الشقوق.. يغطي الحصى والسهل ويطلق الأنغام.

السيل أدرك منبعه. فهل يدرك مسراه؟ وهل يستقيم إلى المصب؟ أتثمر أيها السيل وردا يتنفس؟ وربيعاً ينشر الخضرة؟ ويراعم تضحك؟ ونفوساً تنفعل؟ أفي انسيابك – حين يواتيك المجرى – يتساوى القصر والكوخ، والبيت والحصن، والوادي والتلال، ويتساوى البشر؟.. أتعود الضحكة، وتنفرد الوجوه، وتزول العبسة؟.. أدرك أنه موجود.. تجسم وجوده وانتشر كالشمس كالقمر.. كالنجوم.. أضحى كحركة الأفلاك في السماء، كسريان الهواء، كزخم الأنفاس الصاهدة المكتومة، وحرقة

الآهات المحترقة.. أحس بلمسة يدغدغني.. يغمرني.. يطهرني.. يلعب فوق جسدي، يمتص رحيقي، أراه زاحفاً حين أسير، وحين أجلس أو أنام.. أسمع وقع قدميه في كل خطوة تدب.. يصلني الصدى كنفثة عاشق، كعطر الوردة المبثوث فاجأها القطر..

من قال أن في العشق مهانة؟ أتجيب أيها السيل؟ أجب وقل بالعشق، وضِّح اللغز.

أدور في المكان واختبئ، أسمع الصياح والضجة، وهم يبحثون؛ فساعدهم أيها السيل على الوصول. أعرف أنه موجود.. "أيتها الجارية" الصوت يرن، وأنتفض، أكاد أستدير، أتلفت إلى الوراء، أعرف أنه موجود السماء.. بنجومها المرصعة تضحك له، والأرض الممتدة تمتلئ به. والكون يحمل صلابته. وقلبي مضخة هواء مرشوش بالعطر.. تلتقط أذناي دقات قلبه، أصبح الصوت المبثوث خلفي نبضات قلبي، تشابه كل شيء، الجسد، الحرارة، الرائحة، اللون، والدم المنساب في العروق، تشابه الكل، وأضحى جسداً واحداً. لقد طرت. ومشيت، وغصت؛ فانهدم البيت، أيصبح المستحيل ممكناً؟ ويعود البناء، ويحل الرواء.

ألمحه من بعيد خيالاً يتحدد، تصل أذني كلماته.. كأنما يتحدث بلساني. أحدث التوحد؟.. أيمكن أن يأتي؟ أيعثر عليَّ؟ والمكان يلفه الصمت، وتحتضنه الحلفاء، أيمكن أن يجيئ، ويهتدي إليّ فيعيد للمكان الذي فقد الحركة، حركته؟.. ترى ماذا تفعل الآن يا من أشعلت النار وأحرقت القلب؟

- 35 -

- أنا.. أنا..

حملت الأنا هسيساً داخلياً مقهوراً.. صاح بحدة.

- من أنا؟

لم ينتبه إليه أحد، الكل مشغول، العقول، والقلوب والعيون، والآذان، الصدور تعلو وتهبط، والأكتاف تتهدل، والعيون كبت فيها النظرة. فالليل دهمهم، ولم يعثروا عليها بعد.. كان الحزن غويطاً وهائلاً يطفر على الملامح ويلاصق الأجسام.. والشعور بالذنب يحركهم.. ويلوي عليهم قلوبهم.. هربت.. جاءتهم.. وذابت.. ولم يهتدوا إليها.. بدا الكون كله في أعينهم معتماً ومظلماً، وحانت اللحظة القاسية..

لا مفر من الرجوع؛ ففي الليل ينبث رجال القصر ويفتكون. كانت قامتهم منحنية، ورءوسهم مدلاة على الصدور، والتوت الأعناق كغصن ناشف مقصوف وتسحبوا.. الأرجل أكياس ملح، والخطوات مزرعة.

- أنا.. أنا..

رأوا رجلاً يرفع السوط ويلسع الفراغ.. يستدير ويطوق رأسه.. يقفز ويلفه على وسطه، يرفع ساقه، وينهال عليها، تحلقوه.. توقف.. غطته البلاهة فاندهشوا جامدين. بكى فهزوا رءوسهم، تملاهم وارتجف..

طوَّح بالسوط مرات ومرات.. أصابت ذؤابة السوط أنف رجل فتشابكا.. قال رجل يحجر بين الاثنين (مجنون).. صرخ.. وظل يصرخ.

– أنا السيد.. أنا السيد.

ضحك الناس ثم اغتموا لما آل إليه أمر العباد.

تنطط بينهم. والجزع يلون ملامحه ويضغطها.

– حذروني من العامة.

ازدادوا منه قرباً، ودققوا النظر.. مط رقبته ودار بينهم وقال:

– أنا السيد.. صدقوني.

كادوا يضحكون، لولا صوت ارتفع فجأة وقال:

– يخيل إليّ أنه هو..

بصت العيون محملقة على حين واصل الصياح.

– أنا.. السيد.. أنا..

همس واحد لآخر بأن الجنون أصبح ظاهرة كونية.. أخذته الشفقة وقال:

– نعم.. أنت السيد.

ابتسم السيد، وكوَّم السوط في يده.

– سأعطيك جائزة.. ما اسمك؟.

ضج المكان بالضحكات، واختلطت الأذرع في حركة الدهشة.. توجه إليهم، ورشحت من عينيه الذلة مبلولة ولزجة.

– لا تختلط بالعامة

– لا تدعهم لولبمة

– لا تقترب منهم

– ولا تجعلهم يقتربون منك

– السجن فيه الكفاية

– والسوط في اليد

– أنت سيد البلاد

– الكل يدين لك

– والأرض ملكك

– والخير كله لك...

واهتز الجلد، وانتفض الدم في العروق. وتسلل العرق حثيثاً، حتى أضحى حبات مكتنزة، ثم سقطت مترعة باللوحة.

– لكن المحبوبة هبت في وجهي.. حسبتها دانت، لكنها ذابت.. تصوروا.. قالت.. خطأ.. ما تفعله خطأ.. تصوروا.. تصوروا يا عامة القوم جاريتي تقول لي خطأ.. خطأ أيها السيد، انعزال ذلك عن العامة خطأ وخطيئة.. قولوا لي أنتم يا عامة القوم: ما معنى ما قالته الجارية؟

– إن كانت قالته فهو صحيح؟.

– وإن كنت السيد، فأنت مخطئ.

– هذا إن كان!!.

مد يديه.. فسقط السوط من يده.. فرش أصابعه.. ربت على صدور الجمع.

– ألا تصدقوني.

– ما رأينا سيداً يصنع صنيعك.

– اعذروني.. فإن المحبوبة هربت.. ألم تعثروا عليها.

– ليس بعد.

– سيعثر عليها حتماً.

– سيعثر عليها حتماً.

– كيف وأنتم أحباؤها.

- نحن؟.

- اسمعوا ما قالت، وهي تواجهني.. محبوبتي هربت.. إنهم ينتظرون هروبها، ليقفزوا.

- ماذا قالت؟.

- قالت لا تكن قاسياً على العامة فيعزلوك من قلوبهم؛ القلوب تيجان الملوك.. أفيكم من يفسر قولها؟ قولوا ولا تخشوا مني.

تهكم واحد وقال

- هذا إن كنت السيد بحق.

هاله الأمر وأفزعه فصرخ في حدة.

- بل أنا السيد.

- لا يهم.. استمر فالأمر شيق.

- لن استمر ما لم تفسروا لي.

تقدم واحد منهم، وضع كفيه على كتف الرجل، ونطق متأنياً.

- إذا انعزل السيد عن العامة وهم أصل الملك.. هان عندهم.. علا أو كبا.

هلل الناس وصفقوا وتسحبوا ومضوا.. عاودهم الحزن والقلق، نشب الخوف في القلوب، وظل الأمل في العثور عليها أملا تحوطه المخاوف والآلام.. استدار واحد إلى الرجل.. السيد.. مغيظا ومحنقاً.. قال في سخرية يدمع منها الألم:

– هذا إن كنت السيد بحق.

وبكى .. وتمزق قلبه .. أدرك أن التجاهل خنجر صدئ مغروز في القلب .. وإن التاج أضحى عارياً وبارداً .. فالدم الحار الذي أدفأه .. ولى وانسرب .. وداهمه الألم .. وغشيته موجة من النشيج .. فأسرع ومضى بعيداً عن الجمع وكانت قدماه تتبادلات القفز دون المساس بالأرض.

– 36 –

تحسست الخطى، والشريط ضيق، والبراح بعيد عن العمران. امتد البراح صامتاً وموغلاً في البعد، لكنه قريب، واقع في القلب.. والقلب قلبها وقلب الأشياء، يحدد لها الشكل، ويعطي الكون كله لوناً وحركة وحجماً ومعنى.. ويعطيه النبض، حتى يبدو نبض الكون مبثوثاً في سكون الليل وصمته، وكأنه آلاف الملايين من أصوات مهموسة خافتة، لا تبين، تصنع الصمت، وتصنع الليل، وتعزف للكون على قيثار الوجود.

وينبت من الأقبية المشرعة أمامها هسيس موصول بحركة الكون وسير الأفلاك، وتسقط النجوم في عينيها موجة إثر موجة، ويظل اللمعان الخاطف كالشهاب مرصوداً وباقياً كهبات نسيم الصبا، كدفقات العطر، كنفثات الورد، كزخات المطر، كأنفاس الثمل من سكرة الحضرة.

مرق كالشهاب ضوء باهر ثم اختفى فتعلق به البصر. أحست بلسعة تسري في دمها وتصل إلى القلب، تخيلت أن النور صب وهجه واستقر.

(آه يا قلبي. يا خصيمي وناصري. كم غفلت عنك؟ لماذا ظللت العمر طوله أخاصمك، حتى تراءى لي أنني بلا وطن، حملتني روح الأيام من باب إلى باب، وشاهدت الظلم معقوداً على الجباه. أدركت أن المحنة واحدة، وأن الوجود يتبدى في الكل. ولعنت نفسي في التو. وطاوعتني.. جئت يا قلب مزغرداً كطائر الصباح، فتحت كوة صدري وأطللت تنشق نفثة الفجر.. أنت تعلم يا قلب أنني ما اخترت دُن الخمر ولا قصدت الأنس، وهآنذا عدت واخترت.. فائق القلب على صهد الوجد حتى أفتح الباب، وأهدم السدود.. وأفرش الضحكة على الوجوه، وأعقد على الجبين أملا يورق.

وأنت يا من دفعتني وقدت قلبي، عد وقدني إلى موطني، فإني لا يتراءى لي وطن.. أيها الخفيف الروح.. يا من عزفت بمزهر الوجد عُد.. فلقد أوغلت.. أعرني نظرة منك.

استوحش المكان، تراجعت الأًصوات، وخفت الضجة التي تتبعها؛ فعاودها القلق، وأنشب الخوف مخلبه فعصر القلب، رغم الفرحة الطاغية بميلاد نبت طري يعافر الأرض وينطلق. الوحدة والصمت والوحشة والقلق، وهسيس الأقبية ووشوشات النجوم وخبطات الهوام، والضجة تختفي، أصمتوا، أتراجعوا، أخافوا، ما بال القوم لا يصلون؟

أحكمت غلالتها حول جسدها، قبضت أعواداً من نبات الحلفاء حادة الشوك كرءوس الإبر.. وقادها قدماها إلى الجسر، وكان قلبها يضيء لها بذلك النور الذي سكن واستقر، عبرت الجسر واتجهت صوب القصر.. وقفت على مشارفه، وقاربت الحجرة النائية، محبسها القديم. تعسست الطريق وتقدمت، كانت الطرقة الصغيرة بالجدار لا تزال مفتوحة، والباب موصداً، تناثرت أمام عينيها ذؤابات ضوء فحدثت نفسها بأن الجواري ينتظرن، وأن المبخرة تحرق عصفرها وعودها.. وأن الطبال يدق والعازفة تختبر رنة المزهر، والحاشية تتحلق منتظرة.. وأنه لن يعود وإن عاد فخائر القوى، مسلوب الفؤاد.. صوبت نظرها، وكانت النظرة ساهمة، فمتى تكسر الجواري المزهر؟ ومتى ينفض السامر وينكسر الحاشية؟.. مدت يدها ومسحت على الباب.. التقطت حجراً ورسمت، علقت عوداً من نبات الحلفاء، وكرت راجعة.. عبرت الجسر ثانية في الاتجاه المعاكس، بدت البيوت وسط خيمة الليل أقبية متناثرة.. ومدت

يدها، وبسطت كفها، فردت الأصابع، قبضتها، كأنما تود أن تتجمع في الكف الخيوط وتنطلق..

مسحت البيوت بيتاً بيتاً، اليد ترسم وعود الحلفاء يعلق.. والليل يوشك أن يرحل. تأكدت من أنها مسحت كل الأبواب، وعلقت كل الأعواد، ما نسيت داراً ولا قبوا، ورجعت، والقمر البازغ يرسل ضوءه المنسكب خافتاً، ومرتعشاً.. كانت العتمة تأكل نصف وجهه، ونصف ابتسامته.. وقفت، وارتعشت فتناجت.

(يا من جعلت الكون بنورك خمائل سوسن وبعثت النور فأحرقت القلب، وهتكت الستر، هب لحفنتك المخلوقة من تراب.. رضى القلب وجوهره.. ولتكن صيحات المحزونين عزفه ونبضه، خمره وسكره، وأطلق في الكبد المحروقة آهة العشق).

وأذن الليل بالرحيل، وتنفس الفجر، وأنهت دورها.. قطعت الشريط، وعادت إلى مكانها.. الصمت والوحدة والحلفاء، والقلق والانتظار، ولهفة الأذن لالتقاط أصوات الضجة من جديد.. ولاح أمامها البراح ينفض عنه ستار الليل، ووشوشات الصباح تغافله، وهمسات الفجر تشع بالنور وتستنهضه.

– 38 –

حاول النوم فلم يستطع، تقلَّب على الحصير، على الظهر والبطن، على الجانب الأيمن والأيسر.. شعر بأن أعواد الحصيرة شوك.

حدث نفسه بأن الجسم هدم وما عاد يحتمل.. نظر إلى الأولاد.. هزَّ رأسه وكان الحنين يطفو من عينيه وكانت النظرة حزينة.

واستحال عليه النوم.. أزاح الحرام، نهض وأدى الصلاة. سحب فأسه وألقى نظرة أخيرة عليهم. الوجوه مزمومة، يد الصغير مدفوسة في صدر أمه، ساق البنت عارية، ذراع الأم مرمية عليهم.. أحكم الغطاء.. أحست به فرفعت رأسها.

- الفجر طلع.

- وصليت.

- شربت الشاي؟

- لم أعثر على السكر.

استندت على كوعها وتثاءبت.

- نسيت اشتري.

همت من رقدها فبادرها.

- نامي فالوقت مبكر.

- البركة في البكور، واليوم السوق، وعسانا نحصل على ثمن الشاي.

- ألا يأتي اليوم ونأكل البيض الذي تبيعينه دائماً؟

أحكمت الغطاء على الأولاد وقالت.

- الحمد لله نحن أحسن من غيرنا.. توكل على الله وسآتي لك الفطور.

- هاتي الأولاد معك، فقد نعزق الغيط.

صفق الباب فأحدث صخباً، تأكد من غلقه.. وفي اللحظة التي استدار فيها.. جمد في مكانه، وظل واقفاً متيبساً، رمى رأسه إلى الخلف ولم يصدق.. راعه الأمر فاندهش.. لمح هلالا مرسوماً على الباب، وعود حلفاء مغروزاً في فتحة المفتاح. حدَّق في الهلال والعود وطأطأ رأسه، وزم شفتيه.

- اللهم اجعله خيراً.

سحب نفسه وخطواته تتلكأ على الزقاق.

- من يفعلها؟

رمى بصره على الأرض ذاهلاً.

- ولماذا يقصدني أنا؟.

تنبه أنه يمر بالدور وأمامه الأبواب. على غير عادة منه دقق النظر، فلاح أمامه الهلال مرسوماً وعود الحلفاء معلقاً.. أسرع عادياً،

مسح الأبواب كلها، فهاله الأمر، استدار وعاد إلى بيته، وعقله لا يصدق وقلبه لا يقوى على كبح انفعاله.

– 39 –

أسرعت إلى الباب وفتحته، تملت الباب وفرحت، انسكبت الفرحة فاهتزت أعطافها.. تنططت ورقصت.. دارت حول نفسها وقفزت.. كادت تطير.. ودت لو تطير؛ فتباشير الخير قادمة، ونفثة الفجر تحمل الأمل.. رمقتها أمها غاضبة.

– أأنت بنت عاقلة؟.

لم تسمع، دوَّامة الفرح تجرفها وتأخذها بعيداً.. صرخت أمها:

– أهذا وقته؟

ردت في نغم ممطوط والجسد يرقص ويهتز.

– بل جاء وقته.

هزها أمها بشدة

– اذهبي وخضي القشدة فاليوم السوق.

– ليس قبل أن ترى بنفسك.

- كفاني همك.

- سيزول يا أمي.. قلبي يحدثني بأن الهم سيزول.

جذبت يد أمها، وظلت تجذبها.. والأم تمانع وهي تجذبها.. نهضت فرأت الهلال والحلفاء فصرخت.

- ألا يتركونا في حالنا!.

ضحكت البنت وظلت تضحك، قالت والثغر حبات بهجة.

- إنها هي.

- من؟.

- الجارية.

خبطت المرأة صدرها غير مصدقة، وقالت:

- الجارية!.

أمسكت البنت يد أمها ودارت بها وظلت تدور.

- أخبريني ما الحكاية؟.

- رأيتها الليلة يا أمي تحادثني.. كانت تلبس ثياباً بيضاء وعلى جبينها هلال يضيء.

- لا تحيريني!.

– لن نحتار.. لقد وعدتني بزفاف طيب، وبزوج مهيب وأعطتني سنبلة الحنطة.

– زفاف طيب!! من أين؟؟.

سحبتها أمها، والدهشة عالقة بوجهها، والأمل في القلب يسري، فلعل الأيام تجود!.

– 40 –

وفتحت الأبواب، ورأت العيون، واختلطت الأصوات، وارتفع الصياح حتى السماء وتنامى إليه الصوت مشروخاً وقوياً.. لمست صدرها وابتسمت، وخرج الناس من بيوتهم، وتواجهوا.. صرخ واحد فيهم:

– لم أنم؛ فالحصيرة كانت كالشوك.. أفيكم من نام؟

همهم الجمع في صوت واحد مختلط:

– ومن منا نام؟

– لو نتعرف على من فعل ذلك؟

– المحير في الأمر.

قاطعه رجل بسرعة اللهاث الذي يخنقه.

– كيف يجتمع الهلال وعود الحلفاء؟.

– أو تعرف الفاعل؟

– ما معنى الأمر كله؟

– إني أراه عبثاً.

نطقوا جميعاً في صوت واحد

– لا بل هو الجد كله.

– لكن.. بم تفسرونه؟.

أزاحت المرأة من حولها.. بصت في عيونهم عيناً عيناً، شدت جذعها، وطوَّحت بطرحتها.. أحست بتميز؛ فقالت:

– لقد رأيتها.

أحاطها الجمع.. نطقوا في نفس واحد:

– من؟

– جاءتني في المنام.. وكان على جبينها الهلال مخنوقاً.

– من؟

– كانت تجاهد.

دارت حول نفسها وزغردت

- مدت إليَّ يديها الاثنتين.

- من؟.

وتلوَّن صوتها بالحزن

- وحين استيقظت لم أجدها.

- قولي من.. ولا تتعبينا.

تفرست في وجوههم وجهاً وجهاً.. لزمت الصمت لحظة، ثم نطقت:

- الجارية.

فتل شيخ لحيته وقال في تلطف.

- يا مبدع الكون.

- ولكننا لم نجدها.. فكيف زارتك؟.

- في المنام!!.

لحهم الرجل بأسماله الخرقة، وعصاه المشرعة.. وقال وهو يتحسس قارورة الجاز المنبعجة.

- رأيت الهلال مخنوقاً على الأبواب.

صاح الجمع

– حقاً لقد رأيناه على الأبواب.

– كان مخنوقاً.. ويطلب من يفك خناقه.

حشرت طفلة نفسها بين القوم.

– بنات الحور تخنق الهلال.

رفع الشيخ صوته وقال:

– لندع الله أن يفك الأغلال.

ضحك صاحب الأسمال ورفع عصاه.. ثم صرخ في حدة:

– الهلال مخنوق يا أولاد الهرمة.. ألا تدركون؟ أم أنكم نسيتم؟

نظر واحد من الجموع نفسه وقال.

– إنها الجارية.. إنها تدعونا فلنبحث عنها.

رددت الجموع بصوت كالرعد:

– فلنبحث عنها.. ولنداوم البحث.

ألقى صاحب الحال عصاه، ورمى بقارورة الجاز، فلم يعد في حاجة إلى النار يشعلها لتضيئ، وابتسم لهم، وضحك، وتابعهم يبحث.

- 41 -

ضحك، ثم بكى، حين رأى الجموع توزعت وهرولت للبحث.

شعرت بالتوزع، فرأت في الشتات تجمعا، ففرحت وظلت تحدِّق في السماء، وتسلل الصوت فخرق الظلمة ورج الهمود.

(ما جهلت مذ عرفت، ولا فترت مذ خدمت، ولا قطعت مذ وصلت) توافقت الحركة الساكنة مع همزة الصوت وعمق الأداء، فبدا الكون مقروءاً، لوَّحت بيدها تجاه العمران، وكان الفرح شاملاً وجليلاً.

(أن تعذبني فأنا لك محبة.. وأن ترحمني فأنا لك محبة).. اقترب منها.. تقدم نحوها.. فصرخت فرحة.

– أنت؟

– نعم.

– لقد غبت كثيراً.

– انتظرتك حتى تتمي العمل.

وتنهد في فرح مبهج:

– كان تمهيد الطريق عسيراً.

– لكنهم عرفوا طريقهم.

– ما كان لخبطة اليد فعل السحر، ولا لعود الحلفاء هذا السر الخفي.. إنما نحن عشاق.

– أو كنت تدري؟.

– ما فارقتني لحظة.

– لكنك قادم لتوك.

– أتصورت أنني أجهل مكانك؟.

– أو عرفت؟.

– فقط.. لم أخبرهم.

– لم؟

– حتى يجدوا في البحث.

– أيعثرون علي؟.

– نعم.

– إني أخاف هذه اللحظة.. بقدر شوقي إليها.

– أتخشينهم؟

– أخاف أن أهتز في عيونهم.

– لا يستقيم وجودنا بدونك.

– يا له من شرف.

– فلنصنع نحن خميلتنا حتى يعود لطائر العمر تغريده.

– أما كفانا.

– نحن لم نبدأ بعد.

– إذن سنعود.

– نعم ستعودين.. ستعودين يضحك لك القمر، ويصفق النهر وسآخذك في صدري، حتى يورق قلبانا نبتاً أخضر، وفلا أبيض، ويفيض من القلب، ويروى النفوس العطشى، ويطفئ الظمأ.

– وهم؟!.

– إنهم يداوون جراحهم بأنفسهم فلا تقلقي.

وضمَّها إلى صدره فجفل الصمت، وتمزق السكون، واهتزت نجمة السماء وتألقت.

الخروج الى النبع

هذا الكتاب :

اختيرت هذه الرواية من بين أفضل مائة رواية عربية ، فالروائي محمد قطب يعد رمزا من رموز الابداع السردي العربي ، وقد أثرى المكتبة العربية بالكثير من الأعمال الروائية والقصصية ، إضافة إلى اسهاماته المتميزة في مجال الأدبي التطبيقي .

في هذه الرواية والتي تعتبر درة أعماله يتعانق الواقع الحقيقي بالرمزي ، ويحلق بالقارئ في آفاق صوفية لامحدودة ، ضمن نسيج لغوي شاعري شفاف ، يكشف مكنونات النفس بما فيها من متناقضات .